بورتريه الوحدة

رواية

محمد حامد

Jadawel جداول

محمد حامد



بورتريه الوحدة

Jadawel S.A.R.L. جداول ش.م.م

بورتريه الوحدة

الكتاب: بورتريه الوحدة

المؤلف: محمد حامد

جداول

للنشر والتوزيع

الحمرا - شارع الكويت - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 746638 1 00961 ـ فاكس: 746637 1 00961

ص.ب: 5558 - 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان

email: info@jadawel.net

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

شباط/ فبراير 2011

ISBN 978-614-418-039-6

طبع في لبنان

Hamra Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558 -13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2011 Beirut

تصميم الغلاف: سارة عبدالإله

إهداء:

إلى الرجل الذي أحبه جدًا، إلى أخي سعيد حامد.

ربمّا إهداء:

عندما تصل إلى هواتفنا رسالة جديدة،
غالبًا لا تكون ممن ننتظره.

ربمّا رواية،
ربمّا تُشكل حقيقة.

رسالة رقم: 45، في الوقت الذي كانت فيه العصافير تشحذ همّة بعضها لتستيقظ.

أنا أكره المقدمات، تجعلني البداية دائمًا في حالة توتر كتائهٍ يقف على مفترق طرق ولديه فرصة وحيدة لاختيار المسار الذي سيمضي خلاله. وكأن الحياة كانت تنتظر أن تفرغ العائلة من تقرير مصيري بتحديد اسمي، ثم تبحث عن القدر المخبّأ في صندوق مغلق بكلمة سرّ هي: أنا، وتفتحه ليتساقط القدر هتّانًا فوق طريق حياتي فتنبت لحظاتي. وصرت أنتَ في حياتي، لذلك أرجوكَ إن حدث وقررت يومًا أن تمنحني هدية، فلا تضعها في صندوق وتزينها بشريطي دانتيل متقاطعين لأني أخاف الصناديق فهي تذكرني بالتوابيت، وإن عاندت فلتكتفي بشريط واحد كحزام بنطلون يشطر جسدي إلى نصفين، أنا أشدّ هذا الحزام في كل مرة أرتديه لأنني أظن أنه سيحدث يومًا وأصير اثنتين، واحدة برأس ويدين وثانية بخصر وقدمين. لا تهتم فهذا الاستطراد محاولة للهروب من مواجهة عينيك مباشرة في حال كان الكلام يخصّك، ربمّا تفسر ذلك بضعف في شخصيتي، وقد يكون، لكني اعتدت أن أتجاهل التركيز في عيني من أتحدث معه لأن

ذلك يربكني، ففي كل رمشة أشعر أن شيئًا ما مجهولًا يخبّئه هذا الآخر، وكأن ستارة خاصة بمسرحية تسقط بشكل متكرر ويفوتني العرض، أو كأن البث ينقطع فتفوتني لقطة من فيلم تابعته باهتمام عالٍ، وحين حدّثت صديقاتي عنه ضحكوا من قصتي الناقصة! أنا لا أجيد بالمناسبة سرد الحكايات ولكني سأعاند وأخبرك بهذه القصة:

صعد منصة المسرح. بقي صامتًا فتوقع الجميع أنه ينتظر انتهاء بقايا حديثهم، توقفوا واستمر في الصمت، بدأ يسري هاجس غريب في الحضور بأنه لا زال يبحث عن المزيد من السكينة، سحبوا أيديهم المتشابكة مع من يجاورهم لأنهم ظنّوا أنها توحي له بثرثرة تسري بين الأجساد، تململوا واستمر في الصمت دون أي حركة، دبّت حالة من الرعب عندما رمشت عيناه، صارت القاعة فجأة رئتين تزفر أنفاسًا مرتبكة، لم يرمش ثانية ولكنه صار أليفًا بنوايا خبيثة، على الرغم من ظهوره الأول وخلوّه من أي تجربة سابقه تمنحهم تاريخًا يستندون عليه لتفسير ما يفعله، اكتفوا بالتوجس. أغمض عينيه فاضطربت قلوبهم وأغمضوا أعينهم، بعد وقت طويل تجرّأ طفل وفتح عينيه ثم نكزّ أمه فشهقت، طمأنها بأنه قد ذهب، تسربت هذه النتيجة كوباء بين الحضور، فتحوا أعينهم ثم تنفسوا الفرج وهم يرددون: لقد خرج، لقد خرج. واحدة فقط ظلّت على حالها مغمضة العينين هادئة النفس تنتظر كلمة يقولها لتتعرف على صوته، ولما فقدت الأمل صرخت بالحضور: كان يريد أن يخبركم أنه وحيد مثلي، ثم خرجت!

سحقًا، لماذا أحدثك بكل هذه الأشياء عني. تعلم أنني لا

أعلم ماذا أريد. الأمر يشبه محاولة تذكّر شيء لا تدرك ما يكون، هذه الحالة يمكن وصفها بطريقة أخرى كأن تقول: أحتاج أن أنسى وعدي بأن أنساك، ولا تتذكر من نسيت لأنك بتّ لا تتذكر أحدًا. وبطريقة أدق أنت تعلم أن لا أحد يتذكرك. لا مشكلة، سأعرف بنفسي من جديد: أنا الأنثى المنسيّة، الأنثى التي كتبت على نافذتها في عيد ميلادها: هه، وحتى الآن لا تقدر على الاعتراف بأنك كنت تستخف بها. لن أغضب الآن فالوقت ملائم لكل شيء إلا الصراخ، مستوى الصوت يفجع قلبي حينما يرتفع، وحين يزداد في التصاعد يكاد قلبي أن ينفجر. ابتسم الآن ها أنا قد أخبرتك بأفضل طريقة يمكنك أن تقتلني بها. أرجوك أنا أحاول أن أفكّر في شيء لا يمكن نسيانه ولا أجد. ربمّا هذا بسبب الصداع الذي يسلبني النوم ويجعلني خرفة. أنا حقيقة لا أهتمّ إلا بشيء واحد: لماذا كل شيء فيَّ يذكرك بغيري؟ مشيتي تذكرك بالبطريق، وأصابعي عندما أكتب تشبه نكّاشة أسنان كما تقول، إنما حين أغفل عن صوتي وأبدأ في الغناء فلا يخطر ببالي حين انتبه فجأة إلا ملاهي الأطفال كما وصفتني ذات مرة! اللعنة، فلا شيء في الحياة قد يذكرك بي حتى حضوري. وأنا جئت كي أخبرك أنني وجدت بريدك في قائمتي الخاصة بالأصدقاء- وأنت لست صديقي- ولكن هكذا تدحرج اسمك حتى وقف في المنتصف بين صديقتيّ، الأمر الذي جعلني أبتسم بسخرية، وتساءلت عن المعنى الذي قد يخطر ببالي لحظة أن يلوذ رجل بالاعتكاف في طابور الإناث؟ ولم أجد إلا تفسيرًا واحدًا: الرجل يمكنه أن يستغني عن كل شيء إلا عن الأنثى. أرجوك لا تتسرع في محاولة التوصل

لدوافعي في بعث رسالة إليك. أنا والله لا أعي ما يحدث ولكن ألاحق جنوني مغمضة القلب.

«مياو»: Miaoo1@hotmail.com

في البداية دعيني أخبرك بأنني أكره المفاجآت لأنها مراوغة، أشعر أنها تستدرجني مما يجعلني أضع يدي على قلبي كي يهدأ. سأعترف أن الحيرة كانت تنبعث من بين كلماتك، فكّرت في الدافع الذي يجعل أنثى غريبة تكتب لي رسالة غامضة، ثم توقعت أنها رسالة عشوائية، وبعد القراءة الخامسة توصلت إلى أن هذه الرسالة موجهة لي بدقة. ثم فكرت في الغائبين الذين أخذهم القدر مني وتركني ألعق بقاياهم ولم أنسهم، تركوني برفقة أسئلة تأتي على شكل غصّة، تجعل حزمة من كلمات الوجد تتقافز في قلبي، للحد الذي يجعلني أتلفت حولي بينما أضاجع وحدتي، وأفكر: كيف أصنع لحظة أن تمرّ بخاطري فكرة أنني سأموت؟ فتنتابني رعشة في جسدي وأتحشرج بنبضي. أريد أن أطّلع على صحيفتي لأدرك كم بحوزتي من الحسنات والسيئات، وحينها سأدرك قيمة حياتي. يا الله كم أكره حزني حين يهطل دون إشعار مُسبق. كئيب هذا الحديث كعرض فيلم وثائقي مُسجل لمراسم وداعي. مما يجعلني أتدخل فأدسّ لقطة من حفل زفاف، وإعلان تجاري لـ Twix، وأدندن بأغنية قديمة من عصر اللحظات الممتدة، حينما كانت الحياة تمهلنا وقتًا طويلًا لنستوعب دهشتنا ثم تركض من جديد. الحياة الآن تأخذنا على حين غرّة كما تفعل

هذه الأغنيات الجديدة، موسيقى تركض، كلمات تكاد تتداخل في بعضها كأنها قُبلة اختطفناها على عجل ثم شردنا، لحظات نلهث بينما نلاحقها ولا نمسك بها، كأن الثواني مطّردة لدرجة أن الدقيقة تمرّ كلمحة. أتشعرين بذلك يا مياو؟ بالتأكيد لا تشعرين. أنا أجاوب نيابة عنكِ، يمكنني أن أكون بديلًا لأي أحد وكأنني خيار ثانٍ، يمكنك أن تعثري علي حين تجف احتمالات حصولك على غيري، ضعيني المنُقذ في خطة الطوارئ خاصتك، سأحدثك وأرقص وأغني وأكتب وأقبّلك في دقيقة، ثم أشتمّك لأنك لم تخبريني قَبلًا أن كل الأشياء التي تحدث بعد حين قطافها فاسدة، هي فقط تخبرنا بأنها تحدث بعد أن تخلينا عن انتظارها. ما بال كل الأشياء لا تجيء إلا بعد أن زهدتها؟ ماذا لو منحتني الحياة غير ما أريد؟ الأهم ألا تتركني أنتظر كسيجارة أشعلها صاحبها ثم نسيها. ولم أعرفكِ بعد، جرّبي أن تتصلي بي وسأكتشف شخصيتك، أو لا تفعلي! فلكثرة الأصوات التي استمعت إليها صار يرعبني رنين هاتفي، سخيفة هذه الحياة حينما تتخذ منك ذاكرة سماعيّة ثم تنسى كيف هو طعم صوتك! وأحنّ لي، أحن لوجهي الذي نسيت أن آخذه معي، لصوتي بينما كُنت أضحك فتخرج من فمي عصافير لم أقيِّدها لفرح قد يأتي. تعالي إليّ الآن برسالة ثانية فهي جُلّ ما أحتاجه، رسالة سخيفة مملّة يميزها فقط أنها طويلة جدًّا، يمكن لكلماتها لو وُزِّعت على جسدي أن تغطيه بالكامل. رسالة تبدأ بكلمة وقحة، ثم تنهمر الكلمات كصنبور انكسر فجأة، يمكنك كذلك أن تضمّنيها طلاسمَ وتهديدًا، وبعدها يصير الحديث سلسًا شفافًا كأغنية، كأن تقولي: تعال بأحضاني كل ما هزّ البرد أغصان جدرانك، وزيدي: عندي حنين وأعرف

لمين كأنك تعنينني، في طرف الرسالة ضعي رقم هاتفي وتاريخ وفاتي وعدد الذين لم أعرفهم، وفي حاشية الحديث شتيمة أعرفها منذ طفولتي وكُنت أحاول نسيانها، وتوقيع باسمك الصريح. بعدها سأغمض عيني، وأتوقف عن الثرثرة لأبحث عن هواية جديدة. ربمّا أتحول إلى مُحقق، هذه الوظيفة قد تجعلني أكتشف من أنتِ، ولو أن الوقت تأخر فقد مرّ وقت طويل منذ وصلت هذه الرسالة إلى بريدي، وعزمت على الردّ أخيرًا، لتعلمي ألا شيء أخشاه فيردعني عن مراسلتك، ولكني ببساطة بريء من أي علاقة سابقة أو حاضرة بأية أنثى، مما يجعلك في نظري مخطئة في العنوان ولكني تلذّذت بمعرفة تفاصيلك أكثر من سعادتي بوصول أنثى إلى عالمي، وعليه بعثت بهذه الرسالة، لعلها تنساب كضوء يتهندم ليعبر من خلال ثقوب نافذتك طواعية، قلت طواعيّة ولم آتي على ذِكر المطاوعة ولا ألمح لشيء.

«ماجد»: maged-2003@hotmail.com

الساعة السادسة صباحًا: يا صباح الخيبة. هذه الحياة تُعلمنا حين تخذلنا، والمواقف تُرهقنا لحظة أن تصفعنا، والألم ينقّينا من لوث خطيئتنا. صباحُ الوجع. وكل ما لدي من وقت أنفقه على روح السفر، أبذر عمري في المطارات ولا تنبت حقائب على هيئة وطن، وأعود كي أجمعني من جديد، على من يجد شيئًا مني أن يبعثه إلى منزلي، لعله يذكرني بحلمي في الحصول على وظيفة حكومية، ومنزل يخصني، وسيارة جديدة. ثم واسيت نفسي بأن الجميع لديهم الأحلام ذاتها، فشعرت أنها حياة سخيفة والله.

كُنت سأكتب لكِ ولكنني أعتقد أن الكتابة استراق من القدر، فرحت أغني حتى قاطعتني طفلتي حين قفزت من المقعد المجاور لتكون على الساند الذي يفصل بين مقعدي ومقعدها، نهرتها على فعلتها، بكت وهي تقول: أريد أن أكون بقربكَ. مسحت دمعتها وأنا أتمتم: أنتِ في قلبي يا كندة، لكن لا أريد أن أخسر المزيد. توقفنا عند أول محطة على طريق الطائف ـ الرياض السريع، فتحت النافذة ودون أن أميّز ملامح العامل طلبت منه أن يملأ خزان الوقود، أغلقت النافذة لأن موجة من الغبار قادمة، نظرت باتجاه كندة بينما أمسح شيئًا علق بطرف عيني، وقلت في نفسي: هذه الطفلة تسير على خطى أبيها، تنذر

وقتها للصمت، وتتشاجر الأفكار في رأسها دون أن تشاركني معها، لو استعانت بتجربتي كنت سأختزل لها الحياة في ثلاث حِكم: الرحيل شجاعة، الحب مناعة، العفو عبادة. ولكنها عنيدة تتخيل أنه يمكنه أن تجرب وتصل إلى النتائج فتنضج، كم ستهدر من عمرها هذه الطفلة قبل أن تدرك أن أباها ارتكب الحماقات ذاتها ولم ينضج حتى اللحظة.

طرق العامل النافذة فأعطيته 27 ريالًا دون أن أميِّز ملامحه أيضًا، ربطت حزام الأمان مجددًا وأنا آمر كندة أن تفعل الأمر ذاته أيضاً، ثم أخبرتها: سنفطر في الاستراحة القادمة فالوقت لا يزال مُبكرًا. وانطلقنا.

رسالة: 63، بينما تنقر العصافير أعواد القصب لتبني عشًّا، صنعت لنا الناي.

لم تعرفني وأنتَ بقيت طيلة الوقت الماضي تنبش في ماضيك عن أنثى تعرفها جيدًا، سأفترض أنك صادق في جهلك وأحقق أمنيتك برسالة ثانية، لكن أولًا أودّ أنْ ألوذ بالسماء. هكذا تنتابي حالة تجلٍّ لحظة تتجه الحياة نحو المساء ويهطل الظلام، أفرغ ذاكرتي من ذكرياتي، وأمضي برتابة نحو صومعتي- غرفتي المنزوية التي لا تعرفها بالتأكيد- وأخشع في تلاوة صمتي حتى يأتي السحر. أتوضأ بدعوات المنيبين، وأعلّق في أثرهم بقايا أمنياتي، ثم ألثم محاريب تبتلهم، أتنفس رائحة حسناتهم، وبعدها أصلي لربي: أن يهب روحي الدفء والسكينة وأنام، ولم أنمّ. بقيت مستلقية على ظهري أتأمل المانيكان الموضوع في الزاوية، للأمانة هذه المرة الخامسة والثمانون بعد المئة التي أفكر فيها أن أخبئ روحي فيه ولكنه لا يشبهني. أطالع الجسد طويلًا ثم أرسم برأسي نصف دائرة من اليمين إلى اليسار والعكس حتى أتأكد أنني غير متفقة تمامًا مع ما رأيت، الآن أراقب هذا المكان الذي يجزم الجميع أنه مكان مستطيل ووحدي تشكّ أنه دائري. أنا أشك في

كل شيء، وإن أردت وصفًا أكثر دقة: أنا لا أثق بأحد حتى نفسي. ولعل أكثر كلمة أكرّرها في حديثي أو هي كل حديثي كلمة: ربمّا، وأمط شفتي السفلى من الركن الأيسر بمقدار يسمح بخروج الهواء بشكل مستقيم لو كنت أدخن. ولأنني لا أدخن فلست مُسَلِّمَة بكل الهراء الفائح عن المزاج المختلف المصاحب للتبغ، وإن كان حكمي ينقصه عدم خبرة، فهذا يجعلني أفكر في فكرة تراودني منذ وجودي في الحياة أن الموت أمر مخيف وبسبب أنني لم أمت من قبل وأجرب الأمر فيجب عليّ عدم الخوف إذًا، ولا الحديث عن شيء لم أجرّبه من قبل. تتكسر الآن في عقلي أفكار صغيرة حين تصادمها وأحاول أن أركز على ما كنت أفكر فيه من قبل ولا أتمكن، فقط أزيز يتصاعد في رأسي وكأن حشرة لعينة تسلّلت إليه، كم يرعبني منظر الحشرات ويجلب لي الرعب وأنا أتابع أفلامًا وثائقية عنها في عيد رأس السنة، الآن أريد أن أقول شيئين في الوقت ذاته ولا أعلم كيف أقولهما معًا؟ أريد أن أستثني عدم تقززي من الحشرات لو رأيتها في الواقع بخلاف مشاهدتها مصورة، وأريد أن أعتذر عن الكذبة التي ضمنتها حديثي السابق. لن تصدقني الآن لو قلت إنني أعجز عن تذكر أي شيء كذبت فيه تحديدًا، لذلك ضع احتمال الكذب بجوار كل شيء سبق. طرأ على بالي الآن صديقة قديمة ونسيت اسمها، ضربتني مرتين في المرحلة الابتدائية، ومرة في الصف الأول متوسط أو الثاني متوسط، لا أعلم بالضبط ولكنها ضربتني مرة ثالثة، متأكدة من ثلاث مرات على الأقل. ولكن هل ضربتني مرة رابعة بعد ذلك؟ أوه تذكرت لم تفعل لأننا انفصلنا عن بعضنا! انفصلنا ليست كلمة جيدة في وصف صداقة إلا في حال أن

صديقتي كانت رجلًا، كانت أو كان رجلًا لا يهم، لكني أعتقد أن لفظة رجل ستكون متجانسة لو أردت أن أتلو حديثي بصوت عالٍ جدًّا حتى تسمعني، وقد لا أرفع صوتي كثيرًا حتى لا ينتبه المانيكان المتجمد في الزاوية وينقض عليّ، وحينها سألعنه وألعنك وألعن الاثنتين اللتين يخيل لي أنهما تجلسان في غرفتي وتثرثران دون أن تنظر إحداهن للأخرى، الاثنتان معًا جعلتاني أغيّر أماكنهما في عقلي، أرفع يد المقابلة لي لتصفع الجالسة بجوارها، الجالسة بجوارها تبتسم ببلادة مذنبة تظن أنها تستحق العقوبة، المقابلة تعتذر بانكسار أنثى خائنة، الجالسة بجوارها ترفع يدها فأضع فيها مسدسًا محشوًّا ببالونة، المقابلة ترتعد فتتبول على نفسها، الجالسة بجوارها تحشر المسدس في فمها وتبكي. الآن أضحك في أعماقي، والاثنتان الكئيبتان تهرعان لطردي من المكان قبل أن أقتلهما. الآن أيضًا يستحيل أن أخبرك بماذا كنت أفكر فقد نسيت ذلك. فقط سأختم رسالتي باسمي الصريح .

«مي».

طالما كرهت البداية المُتعثرة، هذا الأمر جعلني أهتمّ بتفاصيل اللقاء بدقة، حتى وصلت إلى قناعتي الخاصة، عانقني بشدة أو فارقني. هذه توطئة يا «مي» حتى أخبرك أن اليدّ التي تصافحك ببرود بالطريقة التي تشعرك فيها أن سمكة خاملة تنام في راحتك، تجعل موجة من الكسل تسري في جسدك، وتجعلك تحتاجين الكثير من الوقت لتحصلي على التواصل المُلهم. يا الله إنها بداية محبطة. سأضيف تنويهًا بأن الطريق إلى قلبي وعقلي مُغلق. دعي العاطفة جانبًا حين تفكرين في المستقبل، اخلقي صداقةً مع نفسك وأحبّي ذاتك، الوهم أرضٌ رخوة كالحلم الذي لا نعمل على تحقيقه. الماضي قوت الأموات، الحاضر يصنعه الأحياء، المستقبل يرسمه العظماء، لأن قيمتنا هي ما تحويه أعماقنا. مؤلم جدًّا أن تأخذ الأشياء التافهة التي تحيط بنا كُل هذه الأهمية، ونعجز أن نجد لذواتنا قيمة، نعجز أن نحقق لنا وللآخرين المكانة وَالمنزلة التي يستحقونها. الإنسان فقط دونما هذه الممتلكات يستحق أن نحترمه، نحترم عواطفه وعقله، ونتجاوز التفكير في ـ قيمتك ما تملكه ـ بل قيمتك إنسانيتك. هذا الحديث تورية حتى لا أخبرك أنني أقضي وقتي في: انتظار اللا أحد! لكنها الوحدة، تأتي

كحالة من الفقد، تحيل المكان إلى وحشة وانتظار ـ الانتظار وحده ليس مفاجأة ـ نحن نؤدي الانتظار كواجب حياتي طيلة الوقت حتى يحدث أمر آخر ويتحقق شيء ما، ورغم ذلك أنا لا أجلس على مقاعد الانتظار إنما أقف عليها كعقرب وأدندن: تك تك، أنا هذا الشيء المربك الذي يأتي برفقة الانتظار، وهذه المهنة صارت لي بعد أن تعمّدت تجاهل الوقت وخلع ساعتي وتضييق خطوتي، أنا محشور في فكرة صغيرة بمعني أين سأضع قدمي في خطوتي الثانية القريبة، كسلحفاة تقدر على الجري وتكتفي ببرود سيرها ولا تحلم. أنا متوقف عن الحلم منذ تحوّلت إلى خفاش لا يخرج في النهار، وإن حدث وخرجت فإنني أتحاشى مراقبة ظلي، فهو لا يشبهني ويكاد أن ينفصل عنيّ ويمضي للبعيد، هذه الفكرة ليست عبثية هي حقيقة أشعرها. الظل يا «مي» محاولة بائسة لإقناعنا بأننا نتواجد بكثرة، وأنا متيقن بأنني غير موجود بهذا الشكل المبالغ فيه، حتى مرآتي لا تعكس ملامحي للحد الذي يجعلني أتوهم أنني خفيف ومزعج كمشروب غازي ضار ولكنه يحظى بشعبية رغم أنف تحذيرات وزارة الصحة، لذلك أحذر منيّ. وأحذرك من الإنصات لأفكاري فأنا أتخيّل أنني عدّاء بعد أن أكمل الدوران حول المضمار انتبه أن السباق لم يبدأ بعد. في تلك اللحظة قرر أن يتوقف، يعلم أنه كان من المحتمل أن يفوز لكنه تلذذ بفكرة المراقبة كأنه عروس أرادت أن تتغيب عن زواجها لمجرد الاستمتاع بالغياب. شعرت الآن برغبة جادة في البكاء، بحثت عن شيء حاد يمكنه أن يجعلني أتألم ولم أجد، استغربت من عجزي بينما عيناي ترسمان ابتسامة سخرية معلنة فشلي، خطر ببالي أنه يمكنني أن

أحزن فقط. أن أتخيل أن لدي رحلة على طائرة برفقة حبيبتي ثم أتركها تسافر وحدها لأن نومة ثقيلة حلّت بي، ثم تخيلت أنني نسيت طفلي في المطار حينما سحبت حقيبتي بيميني وظننت أنني أحمله بيدي الأخرى، ونسيت الآن يدي الأخرى ما اسمها، حاولت سؤال الرجل الذي يقف خلفي ويعبث بأنفه عن اسم هذه التي بحوزتي وظلّ يعبث بأنفه واتسعت عيناه ثم أَجهش بالبكاء، رغبت في ركله بقدمي إلا أنني تراجعت لأنه توقع أنني فاعل فأردت تخييب ظنه. بحثت عن رجل آخر لا يعرفني فما وجدت. وقتها فقط تذكرت القُبلة التي لم تكتمل مع ابنة الجيران لأني توهمت أن الستارة المغلقة والنافذة خلفها والرصيف وإشارات المرور ستشي بي. يا الله هذا العالم يعرفني دون أن يتذكر اسمي. سأطلق على نفسي اسم دبوس ويجب أن أتذكر ذلك فيما بعد. دبوس صغير، ينتمي لذات القبيلة التي تعود إليها الإبرة التي خاطت أمي قميصي بها وظللت أبكي لأني اعتقدت أن القميص يتوجع. دبوس ولا أتذكر عدد المرات التي لم أبكِ فيها فيما بعد حينما عاودت أمي خياطة قميصي وظننت أنه لم يعد يتوجع بينما هو يتألم، وهذا السبب جعله يتوقف عن النمو بينما استمر جسدي يكبر. أنا مسمار الآن، وأحتاج قميصًا جديدًا دون أكمام يستوعب جسدي، ثم أجهشت بالبكاء.

«ماجد».

الساعة السادسة وست وثلاثون دقيقة صباحًا: صارت الطائف خلفي بينما تدفعني للبعيد، تجعلني أفكر في أننا لا نسكن حيث نكون، نحن نسكن دائمًا حيث لا نتواجد. فطيلة ما بقيت في الطائف كنت فعلًا في قريتي ولم أقدر على نسيان حياة القرية، النسيان يتملص، يقتنص ما نريده فيخفيه ويبقي على ما يكدِّر صفو لحظتنا، النسيان رجل بالغ الخبث. كنت أريد أن أسأل كندة: هل تعرفين الإبرة؟ وخشيت أن أُرعبها، فكممت فوهة سؤالي، وشعرت أن الإبرة التي تتزاحم بداخلها جرعات المسُكن تنتصب في وريدي الآن، ثم يخفت الألم وأستفيق في غرفة بيضاء وشياطين برؤوس ملائكة وندب في قلبي. هذا ما أشعر به الآن وقد يكون مردّه وجع ضرسي الذي أخرسته بكل المسكنات المُمكنة، ولم تنتهِ الحرب في فمي. وقد يكون الإرهاق الذي صادقني في الأشهر الماضية.

الآن ذهبت زوجتي دون أن تحقّق أمنيتي حين رجوتها: إذا جاءت أحلام لا تدعيها تدخل، أودّ أن أنام ولو مرة بلا أحلام. ولم تتحقق أمنيتي، وصار لدي أمنيـ.. بابا: يعني ماما ما راح ترجع؟

- لم تذهب يا صغيرتي، هي تحتاج بعض الوقت بقرب أهلها ثم تعود لنا.

- أمم، مو إحنا أهلها؟

- إلا، بس هي عندها أهل كمان، وأنا أهلي جدك وجدتك، بس الحين...

- يعني بس أنا اللي ما عندها أهل؟

- أنا وماما أهلكِ، بس لمن ترجع مام..

- ما أحب تمشط لي شعري مرة ثانية، أنا كبرت خلاص واقدر أسوي كل شيء بنفسي.

ومسحت دمعة تكاد أن تفضحها، رفعت صوت المسجل، ورددت شماغي على وجهي حتى أخفي دمعتي أيضًا، وأكملنا المسير وأنا أفكر هل نقتص من الطريق أم هو من يقتص منا؟

رسالة: 72، عندما قرر عصفور أن يبحث عن عصفورة، نفض جناحيه فطارت فراشة.

أنا مكتئبة وتداهمني الكوابيس، ليلة البارحة راودني حلم كئيب: رأيتني في بحيرة من دخان، وسمعت أصوات تكسر سلاسل، وظللت أسقط على رأسي وأختنق، وتخدشني أشواك نباتات ضعيفة، وتزداد الظلمة ويضيق نفسي، فأنتفض حتى أخرج من حلمي، وأجدني أتنهد وتتسارع أنفاسي وتمطر، ويصيبني الغرق فأموت. استيقظت مفزوعة فوجدتني في غرفتي، وسريري بلّله العرق، وألهث، قلبي يكاد أن يخرج من صدري، وأطرافي زرقاء وترتعش، حاولت أن أصرخ فخذلني عجزي، كأن كل الكلمات تلاشت، بقيت أتنفس بصوت مرتفع لعل أنفاسي تُسمع، وبدأت البكاء بهستيريا مرعبة، شعرت أن حلقي يخدشه نشيجي، استيقظت هُنا ثانية فوجدتني انتقلت بين حلمين وأكاد أقسم أنها لحظة يقظة. لا أدرك ما حدث بالتحديد، رفعت جسدي ببطء وأعياني حمل نفسي، لأول مرة أسخط من وزني على الرغم من أنه لا يتجاوز أربعة وخمسين كيلو، تمنيت أنني ورقة ويدفعني الزفير لأطوف بغرفتي الصغيرة، تمنيت زفيرك أنت يتصاعد

ويدفعني فأطير في فضاء سرابنا ثم لا أسقط. أرجوك لا أحتمل أن أصطدم بالحافة وأتمزق. هُنا استيقظت تمامًا، تجاهلت كل شيء آخر وكتبت إليك: أنا حزينة جدًا، تخذلني كلماتي دائمًا، وكلما حاولت أن أردم الصدع الواضح في علاقاتي أكتشف أنه يتّسع، تتناوب عليّ رسائل العتب والاتهام بالاستهتار بالصداقة وإهمالي لخيوط تتشابك مع المقربين. أعترف أنني واهية وهشّة، ويليق بي أن أكون عنكبوتًا. لا تتعاطف معي ولا تستغلّ وجعي، فقط دعني أتخيلك في شباكي، وأتخيلك تصرخ بأنك في ورطة ولا أكترث، أرجوك دعني أبتزّك وأعبث بك، وكن مسالمًا وديعًا، صيدًا ضعيفًا. أنا لا أقدر على المواجهة وأعجز عن التراجع، مُعلقة كفزاعة حقل بالية، مغموسة بكل خطايا العالم، تستخدمني عجوز الحي في ضرب الأمثال بالإناث التافهات، تؤيدها أمي والجميع في قولها، كنت جيدة فيما مضى، جيدة وسيئة في الوقت ذاته، يروق لي أن أتهكم بكل الأشياء الجميلة، ولا يردعني إلا خوفي من انتقام الحياة، الآن أنا بائسة وضعيفة. متوترة حبتين أيضًا ولكن تلاشى حزني، بقي أن أخبرك أن قلبي بات أصغر من قبل، صار ضئيلًا وكأنما انكمش فجأة- ومللتُ مِنيّ- رفعت بصري فلم أبصر شيئًا، وبدأت في الاهتزاز ولم أبرح مكاني، كأنني أرقص دون قدمين، تعبت من رتابتي، وحين انفجرت كنت شجرة خوخ بثمار يانعة. أنا حبة خوخ في موسم الرُّطبْ، وهذه الندوب تجعل مني حبة خوخ فاسدة. ياه، كيف لي أن أشرح وضعي؟ هذا العالم يريد أن يفسر كل شيء حسب فهمه القاصر، فيبتسم لبكائي ويقفز فرحًا كلما توهم أنني نضجت ونبت فيَّ بعض الاصفرار! أحترق أنا، وأتوجع أنا، ومصيري يقرّره صبية الحي في لعبة: قَنَصتُ

الخوخة. هذه الحجارة لا تتفهم بكائي، ترتطم بي ونسقط معًا، أتشوّه بينما ترتفع يد شقي آخر لاقتناص حبة خوخ جديدة، رغم التنويه الذي رغبت بالبوح به: يجب حفظي في درجة حرارة جيّدة. ولكن من أين لي بصوت يجلب بيئة تناسبني. كل الحديث المتراكم بجواري لم يعد صالحًا للاستخدام. وتوسعت حقيبة الأشياء الفاسدة، حبة خوخ وكلام كثير رديء. يا هذا العالم أحتاج مجرد فم واحد يستسيغ طعمي، ثم بكيت، ثم تحسّن صوتي وصار شجيًّا يشبه ما بعد البكاء، فصرخت حينها: يا سيد هذا الحقل أخبر الفلاح أنني أموت.

بعثت بهذه الرسالة ولا زلت تدّعي أنك لم تعرفني بعدّ! أخيراً: أنا أكره اللون الأصفر، وما أحبكَ.

«مي».

يا «مي» كئيبة هي الدُّنيا حين تعجز في العثور لك على حلّ فتجعلك تتكئين عليّ، تظن أن بمقدوري المساعدة وصنع غيمة من دخان زفيري نيابة عنك! أنا لا أملك الآن إلا أن أبتسم، أبعث بإشارة إلى عقلي فتتباعد النقطتان اللتان تقعا على حافتيّ شفتيّ، ويرتخي ذقني، ولا أضحك! أنا أغتصب هذه الابتسامة لسبب بسيط: لم يعد شيء يغريني بالبحث عن تعابير جديدة. أعلم أن هذه المقدمة هشّة، ولكن أحاول أن أخبرك عني بصدق، ومن فترة طويلة تعلمت أن أجمل الحكايات هي التي تأتي مكتملة، ولأجل ذلك أحتاج حبكة، وهذا يجعلني أبحث عن أعظم كذبة ثم أحشرها في حديثي، بمعنى أنا أكذب. الكتابة كذبة، الكتابة خديعة، هي محاولة لاستفزاز الوقت بأن لدينا شيئًا مهمًا نفعله، والحقيقة أن الكتابة موت والكلام حياة. وبشكل مبسط: كلما ضاقت بي الحياة التقطت لي صورة، أفتش فيها عن شيء يشبهني وفي كل مرة أكتشف شخصًا آخر. حينها أبحث عن مكان لم تطأه قدماي من قبل في حديقة منزلنا الخلفية وأدسّ الصورة تحت شجرة ما، ومنذ دسست أول صورة جسدت حالة الضيق التي تداهمني وكل شجرة أدسّ تحتها صورة لي يتغير لون أوراقها! لا تهتمي، فالطيبون لا يفكرون في

السيئين كثيرًا، ولأني طيب جدًّا أكره أن أفشي سوء أحد وأشوّه صورته. الأهم أنني لا أرجو من العالم أن ينساني أو يتذكرني بشراهة، كُنت أحتاج فقط أنثى لممارسة حُبٍّ مؤقت، ولكن كل أنثى هي نافذة للجنون. هذا حديث لا يعنيكِ، اعذريني فالجميع لا يهتم إلا بما يعنيه، اعذريني ولا تصدقيني، فالجميع يهتم بما لا يعنيه! لا تتعجلي وتقترحي أن تكوني الأنثى المنتظرة، فأنا أكذب كثيرًا كما أسلفت. وهذا التشاؤم الذي تلوته هو سخريتي من ثرثرتي. أنا أسخر من كل شيء بالمناسبة، وأبرّر هذه السخرية برغبتي في تطعيم لحظاتي بجزء من المتعة، حتى لا تنتابني حالة الملل الكئيبة. يا الله، هذا الحديث فارغ، أقضم شفتي بين كل كلمة وأخرى، وأعترف أنني غير راضٍ عن كل ما تفوّهت به حتى اللحظة، أعتذر مجددًا لم يكن من اللائق تقديم نفسي بهذه الطريقة، سأجرب ثانيةً. أنا نزيل برتبة مواطن وكل الهراء الذي سأتلوه فيما بعد مبتذل مكرر، وأصرّ على الحديث من جديد. أنا الشيء الذي يحلم بأن ينزوي عن الوقت ويراوغه، أن يصير فجأة كرة بيسبول مهمشة في خزانة لاعب سيئ. المميز في فكرة التحول إلى كرة بيسبول هو الدوار الذي اعتادت عليه في سيرها خلال ماضي حياتها، هي لا تشعر أبدًا بالصداع، ويمكنها أن تتصالح مع فوضى الانتقال من مكان إلى آخر دون تذمر- يا نعمة السفر التي ترفرف بداخلها كل حين- وانتهى الكلام. وبعد: وحيدة كرة البيسبول مثلي، وحيدة وضائعة ولا تثير الشفقة، وهذه التتمة ليست بحديث مهم أو جيد هي للتمويه أنني لست وحيدًا. وأنا قاطعت الشخص الذي هو أنا لأسباب عدّة لا يتسع المكان لذكرها، ولو أنه يتسع ولكني لا أريد

الإتيان على كل أسراري، يا للحماقة التي تجعلني أتوهم أن بحوزتي أسرارًا عظيمة، أقسم أن كل ما أخفيه لا يعدو عن كونه تفاصيل سخيفة تتشابه مع التفاصيل السخيفة التي يتمسك بها غيري ليماطلوا أكثر عن مواجهة الحقيقة، لا شيء يستحق عناء البحث والتحري. والآن بينما أقول ما أقول تتنمل قدمي اليسرى وينام وجع الجرح الذي في ساقي، المؤلم أن الجرح الذي في ساقي أتوهم أنه يؤذيك في قلبك. لن أجازف بالإسهاب عن وصف كيف جُرحت ساقي، وأن المرور بجوار الأشياء الحادة مكشوف الساقين قد يعرضك لجرح غائر تتلذذ به كلّما نبشته ووخزك ألم يجعلك تفكر: كيف سيكون الحال لو أن قلبك الهش بارز فوق صدرك؟ كم أنا محظوظ يا الله أن دسست قلبي. تعالي الآن واخطفيني من أمام هذه الأفكار التي تشي بأني نزيل لم يحظَ بعد بكرامة السجن في حضن وطن. تعالي وتعرفي عليّ. هذا أنا، هذا الطفل الذي يكبر جسده وهمّه. هذا أنا وكم أشبهني الآن، دهشة الحياة وحدها لم تعد تثيرني! أغلقت فمي، نبت الشعر في وجهي، وكل يوم تضع الأيام بعض حزنها في عيني. هذا أنا بلا بكاء، بلا أمنيات كبيرة فقط حلم وحيد: أن آخذ هذا الصغير في طريق آخر غير الذي كبر فيه. ولا تحبيني فلست بحاجة إليكِ، وبشكل أدق أنا أصفر كموسم حصاد ولا أناسبكِ.

«ماجد».

الساعة السابعة وأربعون دقيقة صباحًا: لمحت على لافتة في جانب الطريق: استراحة بعد خمسة عشر كيلو، نظرت عن يميني حتى أستشير طفلتي هل نتوقف فوجدتها نائمة، انتهزت الفرصة حتى أقطع أكبر قدر من المسافة دون أن تشعر بوعثاء السفر. آخر شيء أحتاجه أن أسمع تذمر كندة على عدم السفر بالطائرة، تشعرني الطائرة بالغربة، ويضيع وقتي في المطار بمراقبة ألوان الحقائب، الأسود جميل وغامض وخانق أيضًا، الأبيض بريء وساذج، البني جاف ويمنحك خصوصية، الأحمر أحمق ومبتذل، الأصفر باهت وساطع كأنه الصحراء، الزيتي جيد بشكل ممل، الأزرق مُغرٍ يناسب السماء، يدفعك نحو الغياب، ولا أحد يمنحك وطنه/ ذاته دون أن يطلب السكن في أعماقك. أتذكر أنني تمنيت كثيرًا وأنا في المطار أنتظر حقيبتي أن آخذ غيرها، لعليّ أجد بداخلها أقنعة تُحرض على تقمص شخصية جديدة، ولم يحدث. أكثر ما كان يزعجني في الحقائب صوتها وهي تحتك بجبين الأرض، أشعر أنها تخدش قلبي. مخُلوقة للغربة هذه الحقائب ولا تألف السكون، وطنها السفر كزنبرك حياته في اهتزازه وإن توقف مات. ألتفت نحو كندة لأتأكد أنها تربط حزام الأمان حتى نتجاوز نقطة التفتيش، ولم تستيقظ ففضلت عدم

الإلحاح عليها، تجاوزت نقطة التفتيش الفارغة من رجال الأمن، هي نقطة فقط تؤدي دورها حسب مزاج الظروف، وهذه القناعة أصرّ عليها على أثر موقف قريب. قبل يومين زرت مكتبة العبيكان في الطائف، دخلت المكتبة ولأول مره أشعر أنني حانوتي يعبر بين أموات يختبئون في الكتب، لشدة الرعب الذي دبّ في قلبي كُنت أخشى أن أدوس على كلمة ساقطة في أرض المكتبة، والكلمة الساقطة قد تكون محتشمة ولكنها تمرّدت وقفزت من مؤلف ما، خرجت من المكتبة بسرعة وفوجئت بمخالفة وقوف خاطئ على زجاج سيارتي الأمامي، وحين سألت الجندي الذي يهمّ بالرحيل عن سببها، أجابني بامتعاض: سدد عشان مرة ثانية تعرف توقف زي الأوادم! أخرجت بطاقة الأحوال أبحث فيها عن كلمة آدمي حتى أدينه فلم أجد، فتركته وأنا أشك في آدميتي، وأشك أن العسكري فقط أراد أن ينهي ورديته بأكبر قدر من القسائم. استراحة بعد كيلو، أيقظت طفلتي: كندة، كندة. فركت عينيها وهي تجتهد في فتحهما أكثر، وقالت: بابا ما أحب الشمس.. قاطعتها: النور ما يحب النور، وانعطفت نحو اليمين.

رسالة: 81، في اللحظة التي توقف فيها سرب عصافير عن الطيران، كان في السماء نجم يغرد.

أريد أن أتوقف الآن لأني شعرت بالتيّه، ولا شيء لدّي يستحق عناء البحث والتلصص، أكفيكِ عناء البحث والمحاولة فأنا بالِية وفارغة من كل الحكايات، على الرغم من أن مداولة الرسائل تطربني ولكنها تجعلني أفكر في أنك تسايرني فقط لمجرد اكتشاف السرّ، أعلم أنني بالنسبة إليك أحجية بغيضة، ولكن لا تتخلَّ عن إصرارك وغامر كما عهدتك، ابعث لي برسائل كثيرة حتى يكتظ بريدي وأعجز عن تفسير ما يحدث، وأتشجع على البقاء، البقاء يا سيدي هو ما يجعلني الآن في الجزيرة التي تفصل مساري الطريق، لا يعنيك أن تعرف السبب ولكني سأخبرك حتى وإن كنت لا تهتم فليس من شأني. كل ما يشغلني الآن أن أستجمع قوتي وأفرد ذراعي وأحاول، شددت على أسناني ويداي تؤلماني وهذا الجسر المتصلب على الجانبين لا يتزحزح. يخطر ببالك أنني أكترث بهذا الصراخ المنبعث من المارة، يا للمفاجأة كيف استطعت أن تعلم أنني فعلًا أكترث وأتظاهر بالانهماك في العمل، صوتهم يأخذني وأعلم أنني تورطت في فكرة خطرت

ببالي حين رأيت فوق رأسي بينما كنت أستند على وسادة السرير أن شيئًا سيئًا في طريقه إليّ عبر مركبة لم أميّز لونها، وألهمني ذكائي المحدود حينها أن الحل في توسعة المساحة الضيقة في الجزيرة لتضيق مسارات الطريق حتى يتأخر القدر، الطريق الذي يصلك بعقبة الهدا وتعرفه بالتأكيد، أنت ابن الجيران ويجب عليك أن تلم بهذه الأماكن وأن تحضر كي تساعدني، لا تحاول أن تفهم مبرر فعلتي، فقط ساعدني، أنت ابن الجيران وأنا ساعدت أحدهم حينما حاول أن يقفز إلى سطح منزلكم، ربما لم أخبرك من قبل ولكن أنا من اقترح عليه أن يستخدم مصعد منزلنا حتى يسهل عليه الوصول إلى شيء ما أراد سرقته من بيتكم، أنا لم أكن أعلم حينها أنه ينوي السرقة فلقد فسر لي رغبته تلك بأنه أخ لك يريد صنع مفاجأة، وكانت المفاجأة بأنه سرق خزانة أبيك، تريد الحقيقة لم أشعر بالندم، فلم يكن أحد منكم يستفيد مما في الخزانة وكرهت أن يتبدل الحال عليكم فسررت بما حدث، أنا فعلت أشياء كثيرة لم أخبرك عنها ولكنها مصيرية، وهذا الأمر أعني مصيرية ما فعلته يجعلني مغرورة بالتسهيلات التي قدمتها للرجل الذي حاول قتلك، وعامل الصيانة الذي لوّث خزان المياه بعد أن اغتصب خادمتكم، وخادمتكم في موعدها المشهور التالي مع موظف شركة الهاتف، وماذا بعد؟ هذه إن لم تخني ذاكرتي المثقوبة هي كل أفعالي السيئة على ما أعتقد، بربك لو علمت عنها ستتردد عن مساعدتي؟ لا أظن أنك تفعل. بل ستأتي وتساعدني لنجعل القدر يتأخر قليلًا، والحقيقة أنه لا يتأخر، فالله وحده يلتزم بالمواعيد بدقة. يحلو لي يا «ماجد» أن أرهقكَ أكثر فربما يكون لدي ما يستحق أن نبقى معًا أطول فترة ممكنة. نبقى

معًا رغمًا عن أنف هذا الوقت الشاحب، هذا الوقت الذي أقضيه في مراقبة عمال النظافة وهم يسحقون قدرهم في مكبات النفايات جازمين أن كل شيء متسخ بداية بهم، مراقبة إشارات المرور تلعن كل الألوان وتستمر في الوميض باستسلام، مراقبة كتابات العدل تفوح برائحة الضجر وكأننا ما عدنا نقدر على التعايش مع أحد، مراقبة جارتي تعود بقوت يومها من تنظيف منازل الحي دون أن تخبرني أنها طليقة رجل ثري، مراقبة جدتي تغني الشجن السخيف على ماضٍ كئيب وتجزم أنه كان جميلًا، مراقبة الطابور المتزاحم خلف نافذة الضمان الاجتماعي في الوقت الذي يحسدنا العالم على رفاهيتنا، مراقبة ممرضي مستوصف المدينة وهم يصرخون بالمرضى فيزيدون على وجعهم حنقًا إضافيًا، مراقبة حزن أطفال المدارس حاملين أحذيتهم الممزقة بينما أرسم دمية على نافذتي بمحدد الشفاه القرمزي، مراقبة تجاعيد اليأس تقصم جبين أفراد مجتمعي وأنا أولهن، مراقبة كل شيء أخبرتك به وبعدها أخبرني لماذا سنشتري الجريدة؟ ثم أخبرني هل تودّ أن تعمل في الصحافة؟

«مي».

أنتِ مجنونة فقط، أنا أسكن وحدي وأهلي كلهم يا مي في قرية تبعد 200 كيلو عن الطائف، الأمر الوحيد الذي أتفق معك فيه أنني أعرف الهدا، لكن دعيني أسألك هل جربتِ يومًا أن تتناولي وجبة الغداء على الصفحة السياسية من الجريدة؟ حين تفعلين ستعلمين أن سدَّ الشهية يأتي بطرق عديدة. هل احتجت ذات فاقة أن تدخري بعض الأرغفة في الصفحة الرياضية؟ إن مارستِ هذا الأمر ستدركين معنى الرشاقة. هل يمكنك أن تعيدي طلاء غرفتك- التي لا أعرفها بالتأكيد- دونما استخدام الصفحة الثقافية؟ لا يمكن ذلك وإلا غدت أرضية غرفتك لوحة تجريدية. لم ترغمك الحياة قبلًا على ممارسة هذه التفاصيل السخيفة، الحياة وحدها تفهم حاجة الجميع للخبز والورق وبصيص سعادة. ثم دعيني أطلعك على سرّ صغير ولا تخبري به أحدًا: تتراكم في لحظاتي مهام ملونة، يطالبني الجميع بأن أكون جادًا وعمليًا، ويصعقني الفشل من كل محاولاتي، أنا مهتم بالثقافة ولكني لا أريد أن أمتهن الصحافة، لأنه يصعب عليّ مناشدة المثقفين في إجراء حوارات تخصّ الصحيفة، سيتأفف المثقفون من مطاردتي لهم لأنهم يشعرون من حيث يعلمون أو لا يعلمون أحيانًا أن الصحفي يتسولهم ويقتات على فتات حديثهم، المثقفون أيضًا

يغلقون هواتفهم ويتأخرون في مواعيدهم ويغضبون من وضعهم في أماكنهم الصحيحة. يرغبون في تقديسهم، يعانون من فراغ الشهرة والاهتمام، ويفرغون نهمهم للحضور في الصفحات الثقافية بشكل مُبجل على عاتق الصحفي وكأن الصحيفة تحت تحكمه! أنا أيضًا جاهل بِلقافة الصحفيين وشراهتهم للإثارة، ولا أرغب في أن أتعلم الدحلسة. يكفي أن أخبرك أن أول درس تتعلمه في الصحافة يخص كلبًا، ليس كلب فرويد ونظريته بوجود المثير، والمثير الشرطي، والاستجابة، واللعاب، والتبول اللاإرادي، وتحليل النفس البشرية، وأن الجنس هو الدافع لكل ما يحدث في الحياة! فرويد بالمناسبة ارتكب شطحات تجعله في تقييمي رجلًا مكافحًا ومتمردًا من الدرجة الأولى. لا يهم فأنا أكرهه وأحب ماسلو، ماسلو وحده من يؤمن أن الوحدة هي ما يدفعنا للبحث عن الحب والاحترام. عودةً للكلب الذي يحضر في أول درس يجب على كل صحفي تعلمه، وهو: كلب عض رجلًا، ورجل عض كلبًا! في الجملة السابقة أستخرج الخبر الصحفي؟ الأمر لا يستحق التفكير، الرجل هو المُذنب والمانشيت المميز، الإنسان دائمًا هو المادة السائغة لتشكيل لوحة فاتنة! الإنسان يفقد قيمته تدريجيًا في هذا العالم المتناقض. يبقى التقرب من المسؤولين والكادحين وخبايا الحكايات بحثًا عن مادة صالحة للمضغ والاجترار أطول وقت ممكن وهذا كل ما تفعله الصحف، فقط ليبقى لدينا ما يستحق أن نبعثر أوقاتنا بالحديث فيه! مُملة الصحافة وبغيضة وتشعرك بأن السواد يكتسح كل مساحات الحياة، ويصعب أن يتواجد في صحافتنا من يمتن للمهنة، الكل يعلن سخطه وتظهر تقاسيم حنقه كل حين. وبعد كل هذا سأكون لو عملت في

الصحافة مجرد صحفي بارد مكرر كخبر القبض على متسللين مجهولين بعد الحدود، صحفي يجلس على الهامش كخبر عاجل سرعان ما ظهر أنه مجرد إشاعة، أنا القطعة الخاطئة في الخانة الفارغة من مربع تراكيب الحياة! لعلي أستدرك أمرًا مهمًا، هذا توقيت غير مناسب لحضوركِ، فبينما أنتظر على الهاتف متى يأتي صوت موظف الخطوط وأخبره عن نيتي بالسفر، وجدتني حين سألني عن الوجهة لم أعلم إلى أين أود أن أسافر! فأغلقت الخط قبل أن يسخر مني. لا أرغبُ في الوصول لكل الأشياء التي أعرفها فهي تُذكرني بالماضي، لا أريد طُقوسًا أو أحداثًا مُكررة، كلُّ التفاصيل هُناك حيث سافرت تيقظ تفاصيل مُشابهه ترقد في رأسي، وأُمزق ذاكرة الأمس ومَلل اللحظة بحلاقة ذقني. اختراق عقلي من أجل الفهم سيكون مغامرة غير مجدية، كمتاهة البحث عن كنز غير موجود، أو لعب مباراة غير مُنتهية بتوقيت مُحدد، أشعر أن الوقت يسابقني الآن، يود أن يأخذني وأقول: تمهل. لنْ يكون هناك شيء يستحق أنْ نندم عليه، لم يقدر أحد على تحقيق كل ما يريده، أنا لا أريد أن أحقق كل شيء، دعيني ألتهم الفراغ والهواء والضوء والمخلوقات الصغيرة جدًّا التي لا نراها. ثم أخبريني هل كنت أمارس البكاء فيما تقدم؟ إذا كان هذا الإحساس هو ما وصل إليك فتأكدي بأنه ليس ما قصدته. باختصار أنا رجل متذمر. ولم أعرفك بعد، ومللت منكِ.

«ماجد».

الساعة الثامنة وثلاث عشرة دقيقة صباحًا: كنت أمسك بيد كندة وأمرجحها، ولجنا السوبر ماركت لأشتري فطيرة سفن دايز المحشوة بكريمة الكاكاو لكندة، فوجبة الإفطار المكونة من صحن مقلقل وصحن كبدة وبراد شاي أحمر بالحبق، لم تناسب مزاج طفلتي، ولم أتمكن من الحصول على خيارات إضافية، مقيتة هي الخيارات المحدودة، تلك الوجبة تجعلني أعتقد أننا نراود الأغنام فنحن نأكل جزءًا منها في الإفطار وعند المساء نأتي عليها كُلها، تذكرني بحكاية في كتاب المطالعة عنوانها: أكلت يوم أكل الثور الأبيض. نحن نلتهم الأغنام بشكل مبالغ فيه وتعدّ أكبر كرامة تقدم للضيف، ولكن قيمة خروف واحد صارت تهزّ ميزانية شباب الدخل المحدود، كلنا تقريبًا نصنّف من هذه الشريحة الواسعة الكادحة، ولم أرغب في مواصلة السباحة نحو المجهول الآن على الأقل، قشعريرة أربكتني بينما ألفّ قبضة يدي على المقود، عدلت جلستي وربطت الحزام، طفلتي جلست على الساند، المكان الذي صار لها مؤخرًا، وراحت تعبث بشعر رأسي، وفجأة نزف أنفي، أخذت أربعة مناديل وأملت برأسي للأمام، وتذكرت الجملة التي بعثتها لزوجتي بعد شهرين من زواجنا حينما تأخرت في الخروج من المدرسة في ظهيرة حارقة

تحت شمس الرياض حين قلت: مُحبط هو انتظار من وعدك بالمجيء ثم تركك لتبتلع وحدتك، تعالِي أحتاج منديلك، هذا أنفي ينزف كلما توترت. لم تنبه كندة لأنفي لأني كنت أسحب المزيد من المناديل وأمسح أنفي بعد أن أوهمت طفلتي بأني أحتاج أن أغسل وجهي فاتحًا الباب واضعًا قدمي اليسرى في الأرض، سألتني طفلتي: بابا اليوم العيد؟

- لا، ليه؟

-أكلنا مثل هذا الفطور عند جدي يوم قتلتوا الخروف!

-ضحكت، حتى كدت أسمع هند التي في كتاب المطالعة السخيف تقول في نهاية قصتها لأحمد: وقهقه الجميع وخلدنا للنوم.

أغلقت الباب، ربطت الحزام، أكملنا المضي يحملنا الطريق نحو الرياض.

رسالة: 95، العصفور الذي ألتقط نبضه ينام في غيمة، لينهمر المطر ملونًا في المرة القادمة.

مزاجيتك جعلتني أفقد حماستي. لتعلم أنه لم يعد يغريني حديثك المترهل، ولا أسمح أن تستخدمني في حصة تمرينك الكتابي، أغلق هذه النافذة التي تصلك بي وانصرف بصلواتك نحو قِبلة جديدة. أشعر أنك تمن عليّ مجيئي إليك- هكذا يفعل كل الرجال- يظهرون كبريائهم حالما يظهر من يهتم بهم، ويخضعون خلف من يتجاهلهم، كل الرجال ضعفاء ومثيرون للشفقة، ونحن النساء ساذجات وحمقاوات، تبًّا لك بقدر ما تستخف بي. وتبًّا لي حين توقعت أنك تهتم لأمري. كأنك من يلاحقني لتوهمني أنك تراعي مشاعري. هيه، أنا لا أعاني من حالة كساح في إحساسي تجعلني قابلة للكسر عند كل صدمة. أنا أعلم جيدًا أنني من يأتي إليك ويماطل في الحكاية كي تتمدد، أتعلم ماذا يصيبنا حينما تطول فترة بقائنا معًا؟ يحدث أن أتعلق بذاكرتك، ونتقاسم تفاصيلنا المهملة دون وعي، فتعتاد علي وتعجز بعدها أن تعيش دونما مرافقتي لك! إنه خبث النساء يا سيدي. أحيانًا يصير هذا الخبث كيدًا جميلاً ولكنه غالبًا يعجن

حياتك ويهشم مفاصلك. نحن نتذوق منه أكثر مما يصلكم معشر الرجال، وهذا ما دفعني للسفر نحو الغرب قبل عامين، ظننت أنه حين تتعلم لغة جديدة فأنت تلامس تفاصيل حياة مختلفة. هذه الجملة قد أعدّها حكمة، يحق لي أن أشعر بغرور تجاه أفكاري، لأني ببساطة أدلّل عقلي طمعًا في عقد صداقة معه، وأفشل.
سيدي هذه حقيبتي لا تتسع إلا لغيابي، خُذها وردّني إلي، أتعلم أنني لم أفرغ ما فيها منذ العودة من الغربة؟ كانت فترة قصيرة ولكنها عميقة، اعتقدت أن البعد سيشفي ذاكرتي وينقي صدري، عندما حلقت الطائرة صوب البعيد مولية الوطن ظهرها، تأوهت وأخرجت حقيبة اليد من جيب المقعد الذي أمامي، ونثرت أشيائي في حجري، ثلاث صور من الحجم المتوسط تجمعني به، قنينة عطر من لقائنا الأول نصف ممتلئة، شريحة هاتف تحمل رسائله، منديل ليلكي تصبغه كلماته في عيدنا الأول، وآخر أغنية حضرت في ليلة فراقنا! وبدأت في البكاء، كنت أراقب دموعي وهي تبلل عباءتي وأدرك أن الحب لعنة تورث الشقاء، الحب ذريعة لنتمسك بالحياة أكثر، نحن نحب من أجل ذواتنا وحين نفقد شريكنا نعجز في إيجاد من يستقبل فائض نبضنا فنضيق بأرواحنا. بقيت على حالي لحين سماع النداء الداخلي بموعد الهبوط في مطار فرانكفورت، لملمت بعثرتي وكأني أخشى على حزني من الضياع وتأنقت للقاء مدينة غريبة بمظهر مرتب بعض الشيء لعلها تُعجب بي فتسرقني. لم تأبه بي ألمانيا، تجاهلتني كما يفعل معي الجميع عادة، فانشغلت بمراقبة المسافرين، كنت أبكي معهم، أفرح بلقاء يحدث بين مسافر ومستقبل، أجزئ حياتي في حقائبهم وأستعير من حياتهم حياة لي. صعدت الطائرة ثانية ولم

ينقص وجعي، غفوت حتى أيقظتني المضيفة في مطار تورنتو، لحظتها داهمتني رغبة كبيرة بالموت. للمرة الأولى في حياتي أشعر أن العالم يلفظني، وأن كل المخلوقات تستغفلني، وأنيّ وحدي المتهمة بكل لوثات الكون وجرائمه وترهاته، وحدي من تستحق أن يصيّرها الله إلى كرة مصنوعة من الجوارب تستخدم تارة للعب وبقية الوقت لاصطياد العصافير. في مطار تورنتو لمحت اسمي برفقة أحد عاملي معهد التدريب الذي سألتحق به، ببرود سلّمته حقيبتي وجرّها برتابة حتى خارج المطار، أردت أن أتجمد على الرصيف الذي يشق الطريق لنصفين فأكون تمثال الغربة. وحين أكون تمثالًا ويقصدني السياح سألعنهم وأبصق على كاميرات تصويرهم، يجب عليهم أولاً أن يقبلوني حتى أتماسك أكثر. يا لغبائي أهذي بالتماثيل في الوقت الذي يردد فيه العالم أن كل إنسان لديه الحق في اختيار رزقه وحظه. العالم يقول ذلك، وأنا أقول إن أعمق الأشياء هي الأقرب متى ما حدثت، فأتذكر من الطفولة أشياء أقرب إليّ من عشاء البارحة الذي نسيته الآن، المُرهق أننا غالبًا نضع الأشياء المؤلمة في الرف الأول من ذاكرتنا، وندفع بكل جميل إلى مكانٍ بعيد، لذلك لا عجب أن يكون الماضي غالبًا شبيهًا بالإبر الصينية التي لا تكفّ عن وخز قلوبنا في حاضرنا. لا تهتم ودعني أسألك عن حالك، وهل تصدقني حين أسال عن حالك؟

«مي».

جيّد، وأنا أصدقك، أنا أصدق الجميع في كل شيء، ولكن لا أقول الحقيقة دائمًا، وأكتفي بأني جيّد ثم أتبع حديثي بنقطة. حتى ينتقل الحديث إلى شيء آخر غير حالي، ما فائدة معرفة كيف أنا؟ ربمّا يخطر ببالك أنني أتهرب من الإجابة، وهذا هو ما يحدث، نحن لدينا ديباجة لقاء تبدأ بالسلام وبعدها السؤال عن الحال لندخل إلى حديث آخر يخصّ أحوالنا، نحن نسأل عن الآخرين لنخبرهم عنّا، لم يحدث أن سألني أحدهم عني ليعرف حالي ويطمئن. أوه، ربمّا حدث ذلك ولكني حينها كنت لا أصدق أحدًا في إحساسه نحوي، أو أنني أصدق ولكن لا أرغب في بعثرة تفاصيلي أمامه. أنا أخبأني لأن الوضوح يجعلني مكشوفًا وأنا أكره ذلك، أكره أن يمتد بيني وبين أحد شيء من الخصوصية لأنه يجعلني مرتبطًا به، على ذكر الارتباط أنا أعَرّف الزواج بأنه: كالشروع في الصلاة، وهذا ينطبق على أي ارتباط من أي مستوى، لذلك لا أريد أن أصلي حتى أتأكد من القبلة تحريًا لسكينة تمتد في دعائي وتبقى طويلًا. ولم أخبرك بكل شيء فقط أنا جيّد ويعنيني شخصي وحدي ولا أكترث ببقية الرجال الذين تعرضتِ لهم في بداية رسالتك. والآن أفكر بجدية ما الذي سأجنيه من ملاحقتك؟ لا أخفيك أنيّ بدأت استلطفك؛ سأثرثر

لك الآن وأنا مبتسم لأنك معي، سأدعك تشعرين أنك تجلسين بقربي، انتظري وستربن. أنا جالس على مقعد خشبي يلتحف قطعة جلدّية بنية اللون، وأثني قدمي اليسرى تحت ركبتي اليمنى، وأنتِ تجلسين بذات الكيفية على فراغ، تخيّلي أن أتمرد وأدعك تسقطين. طيّب، لا تثقي بِي، لم يعد في الحياة فضيلة تُدعى ثقة. تابعي معي، ضربت برأسي الطاولة ثلاث مرات ولم تنكسر. ضعي يدك على جبيني، ابدئي من فوق عيني، توقفي! هذا أمر غير مُجدٍ، فأنتِ لن تفعلي، والطاولة حتى وإن انكسرت فلن تسمعي نحيبها، هي لا تنتحب أصلاً، تتهشم من الطرف قليلًا ويأتي في الغد عُمال الصيانة ويستبدلونها، لذلك كل الأشياء التي يمكن استبدالها جُرم أن نبكي عليها. ورأسي قبل أن تضعي يدكِ عليه لا خدش يشوه منظره فيجعلك تقشعرين. أنا أدور حولي كما يبدو ولن أتقدم، طيّب، يمكن أن أصل من خلال الدوائر لحظة أن تتقاطع، لنتخيل معًا: دائرة صغيرة بحجم بؤبؤ عيني العسلي، وعند الدورة الثانية ترتفع قليلًا بقدر ما ترفعين شفتك عندما تقررين أن تسربي قُبلة لا تُسمع، تتسع الدائرة وكأنما طفل تجاهل الكتابة على الخط وصار يكتب بحرية، لا زلتِ تتخيلين معيّ؟ أنا تجاوزتك الآن ووصلت الدائرة العاشرة، توقفي! كان بقدرتي أن أختصر الأمر وأعرض عليكِ أن نسير في طريق حلزوني، كُنتِ سترحبين بالفكرة لأنها بسيطة، هذه هي النقطة المهمة: الأشياء البسيطة. نحن لدينا طرق سهلة لقول أشدّ الأشياء صعوبة، ونُبدع في العثور على أعسر وسيلة لفعل ذلك حتى نعقد الأمر ظنًّا منا بأننا كنّا سنسهله. طيّب، أنا مُعقدّ ولن أتركك حتى تندمين على اللحظة التي قررتِ فيها أن ترافقيني. لنفترق بطريقة مؤدبة كما

حدث معي ليلة البارحة، تريدين أن أخبرك بالتفاصيل. طيّب، تمنيت البارحة أنْ ألتقي بأنثى غريبة، نشتم بعضنا طويلًا دون سبب، ثم نبتسم ونقبّل بعضنا ونمضي، ركزّي أرجوكِ: قُلت نُقبل بعضنا، أي أن أقبل شيئًا مني وتقبل هي شيئًا منها، أنا قبلت ظهري، وهي قبلت نهدها، توقفي! تظنين أنني اتجه نحو حديث حميمي، فعلًا كان سيحدث ذلك لولا أنك بدأتِ تنظرين بعينٍ خبيثة لحديثي، وضحكت ضحكة كبيرة تكاد أن تصل لمسمعكِ. نحن نتعاطف مع السرد الوقح ثم نشتم صاحبه فيما بعد. هذا بالضبط ما حصل ليلة البارحة، بعد أن مضيت وصلني صوت تأفف خفيف يشبه الصوت الصادر عن الزوجات بعد أن يدير الأزواج ظهورهم في غرفهم الخاصة. طيّب، وصلنا الآن إلى الغرفة الخاصة لنخلق معًا مشهدًا غراميًّا بين اثنين منعزلين في غرفتين متجاورتين. في شمال المدينة، في فندق صغير كُنت أقطنه، وتعلمين البقية عن الغرفتين والاثنين بداخلهما ولن أكمل، لا تكتئبي وتشتميني سأخبرك السبب في عدم ذكر المزيد من التفاصيل: هي أنثى وحيدة وأنا رجل بائس والشيطان ينام في الجدار الفاصل بين غرفتينا، لنستمع لوسوسته دون أن يشعر بنا، ستقولين: كيف يحدث أن يعجز الشيطان عن سماعنا؟ هو الشيطان الحقير كان مشغولًا بحبك خطة معقدّة ليجعلنا في سرير واحد، ولو سألني الشيطان لاقترحت عليه خطة بديلة بسيطة. يتسلل حتى باب غرفة الأنثى ويطرقه ثم يأتي إلى غرفتي ويطرق بابي ونخرج ونلتقي في الممر. هذه الفكرة كانت ستؤتي أكلها لولا أنه صعد موظف الاستقبال في هذه اللحظة تحديدًا وجاء ليخبرني أن صديقتي على الهاتف تريدني في مكالمة غريبة،

لحظة! يجب أن أتمتع ببعض الذكاء فالشيطان ضاق بكلمة حقير التي قلتها عنه وجعل صديقتي تتصل لإفساد خطتي فقط. طيّب، تشعبت كي أختبركِ هل أنتِ تسيرين برفقتي وعلمت أنك تحاولين اللحاق بي، هيّه، ألم تعلمي مُسبقًا أنني سريع جدًّا، فبينما تفكرين أنت في مكالمة صديقتي المتأخرة كُنت قد وصلت قريتي الواقعة بين الباحة والطائف وأخذت جنبيّه، وبدأت في هزّ جذعي، أرفع قدمي اليمني ثم أضرب الأرض بقوة، وبتناسق أرفع اليسرى وتعلمين التتمة، أقفز ليس كأني مسعور، أنتِ تفعلين الآن مثلي وترقصين، عاشوا، إيه طيّب، اثنين اثنين والرمي ممنوع، لحظة، هل تحملين بحوزتك أي سلاح، أنا أعتذر منكِ، أستسلم الآن، أنسحب وأتركك وحدكِ.

«ماجد».

الساعة الثامنة وتسع وخمسون دقيقة صباحًا: تذكرت زوجتي بينما أعبث بالمرآة المعلقة في منتصف زجاج السيارة الأمامي مكتوب عليها دعاء السفر من جهة، وإعلان تجاري من الجهة الأخرى، حين قلت لها وهي تسكب لي فنجان قهوة: أنا رجل سخي، وبمزيد من التضليل: أنا رجل سخيف جدًّا. وأظن أنها ابتسمت ولم أتأكد من ذلك فهمست لها: تعلمين أكره الحديث الذي يأتي من خلف هذا الغطاء، أشعر أن تعابيرك لا تصلني، لا تخبريني بشيء وأنتِ معي دون أن أرى وجهكِ، طالما أن الوضع يسمح بأن أطلع على تقاسيم الحرف على ملامحك فلا تحرميني ذلك. هذا الحديث كان في العام الماضي ونحن نتجه من الرياض إلى الطائف بعد أن حصلت على عقد عمل جديد، وقررت زوجتي أن تترك وظيفتها المؤقتة في مدرسة خاصة. أوف هذا الطريق لا يكف عن استفزاز الصحراء فتذرو الغبار وتصعب الرؤية معه. وأتذكر أن زوجتي أيضًا أخبرتني عن معلمة معها ينعتها الجميع بالغباء، ولتثبت ذلك وصفت طريقتها في وضع الأسئلة حيث إنها كتبت مرة: ضعي في الفراغ المناسب الكلمة غير المناسبة! وأضافت: فعلًا غبية صح؟

- لا والله، هي ذكية جدًّا، هل هي متزوجة؟

- أيمن لا تعد لهذا الحديث مجددًا أرجوك بكل شيء جميل في حياتنا، فروحي لا تجيد الهبوط كقطرة مطر، إنها تسقط كجسد تعثّر من أعلى سلم طويل!

هُنا شعرت أنني وخزت قلبها بشدة، وأدركت أنه لو كان للكلام ثمن لكان الصمت قد استوطن المكان، وهمست حينها:

- أعترف أنني ثابرت دومًا أن أنصت لدروس الحياة، وحين تتيح لي الفرصة في أن أختار ما يناسب كنت أتوهم أنني فعلت، الغريب أنني فشلت! الآن لن أبدو ساذجًا وأفكر، أرغب في تكرار الفشل. صرخة الماضي صوت نشاز يشوش أغنية الحاضر، أعتذر حبيبتي: على أثر جرحك ترتسم دمعة، أرجوكِ أريد خدّكِ حتى أرويه. وهذا المدى كله، على بعضه، مثل قطرة. هذه أحلامي تتساقط في موسم الخيبة، حتى المطر يا حياتي لا يبلل غُربتنا، كأن أرضنا ثقوب، وبات الوقوف مخيفًا، قد أسقط في هاوية وجعكِ. ابتسمي، واغفري لي.

ولم يكن هذا هو الكلام الذي قلته بدقة ولكني أحببت أن أحرفه. والآن أيضًا تنتصب على جانب الطريق لافتة تشير بأننا ابتعدنا 310 كيلو عن الطائف. وعن زوجتي كان البعد أكبر.

رسالة: 97، حينما يتزاوج عصفورين، توشوش بقية العصافير لبعضها وتنظر للبعيد.

تشغل بالي فكرة صغيرة، هي فكرة صغيرة ولكنها مستحيلة. لماذا أضيع وقتي فيها إذًا؟ لا أعلم. الذي أعلمه وأراهن عليه أن فكرتي الصغيرة لو تغدو ممكنة سأنتقل فورًا إلى فكرة صغيرة جديدة مستحيلة أيضًا. أظن أنني أضع نفسي في المصاعب متعمدة كل حين، وإلا كيف أخرج من معضلة فكرية حتى أتعثر بحيرة نفسية؟ وأراقب عقلي يتنقل بين أفكاري وإحساسي، عقلي الذي يشبه نظرات رجل فضولي لا تهدأ. لا، هذا التشبيه مُستهلك. سأبحث عن تشبيه أفضل، ليس أفضل بالضرورة الأهم أن يكون مدهشاً، لو قلت مثلاً: يميني عقلي، ويساري إحساسي، وحين تلتقي يداي لا يخرج صوتًا بل تنتج شرارة ورعشة. لا، يستحيل أن يكون هذا الوصف مذهلًا، هو رديء جدًا. سأجرب صورة أكثر فتنة، مثلاً: أفكاري حبات قمح، وإحساسي أرض طيبة، وجمجمتي رِحىً، فمن سيستسيغ أرغفتي؟ من يضع حزنه فوق ركام جسدي ونشتعل معاً، من يظن أنه يقدر على أن يكون عود ثقاب مثلكَ، من يشعر أن مقدمة رأسه لا تتعدى أن تكون ذارت

نيكوتين، من يجزم أن كل مفاصله هي تحايلات جسده على صموده، من يؤمن أن في صدره أربعة شياطين يناقشون سبل الغواية؟ من يرفع حاجبيه لتسقط ظنون العابرين بأنه ميت؟ من يفتح قبضته فيجد فيها بغيته وينام؟ من يملك القدرة على الاعتراف بأنه يشاطرني هذه السخافات فليعلم أنه مجنون تمامًا. هل بدوت مدهشة بعض الشيء؟ يجب أن يكون ذلك قد حدث، وإلا كيف سأعيش وأموت ولم أصنع ولو لحظة دهشة واحدة! سيقول المتوجسون إن الدهشة حضرت، المتنطعون سيجزمون أن الدهشة فقدت، أنا لا أدرك الفرق بين المتوجسين والمتنطعين. لا يهم الفرق، الأهم أن أظهر بطريقة تجعلك تظن بي أشياء متناقضة، وتنسج تخيلات متفاوتة عني، وبعدها لن يتغير شيء على فكرتي الصغيرة المستحيلة، سأرجئها إلى وقت متأخر وأكمل في محاولة صنع الدهشة، سأجرب أن أقسم ورقة بيضاء بخطين متعامدين، وأرقّم المربعات بطريقة عشوائية، المربع الذي في زاوية اليسار للأسفل سيكون رقم اثنين، سأضع فيه قائمة الثنائيات في الحياة ثم أختمها بجملة: اندمجوا. المربع في زاوية اليمين للأسفل سيكون رقم ثلاثة، سأرتب فيه كماليات غدت ضروريات: طرف المشعاب المائل، ضلع المثلث القائم، قائمة الكرسي الثالثة، نقطة انشطار الجسد من أعلى القدمين، وبعدها سأضيف: تباعدوا. في المربع الأعلى لليسار رقم واحد كتابة وأنقط بقية الفراغ باتزان ثم أبكي قليلًا. المربع المتبقي لن أسميه ولن أحشو بداخله شيئًا، سأتخيل أنه مكتظ بحروف لغة غريبة، لغة استخدمتها مخلوقات منقرضة، كانت أصواتها أغنيات. سأصمت برهة من الوقت كي أمنحك بعض الهدوء لتلملم دهشتك وتصفق

لي، لن تسمع صوتًا. لا تكتئب، هي مراوغة الجسد فقط، فمرة يحدث أن تصفق بلا كفوف، ومرة تصفق ولا تجد صوتًا. ألم أخبرك أنه تشغل بالي فكرة صغيرة مستحيلة؟ ولأني منشغلة بالكتابة فذاكرتي فارغة، الأمر يتشابه مع التقاط صورة مدهشة لأن المصور لا يرغب في حفظها في ذاكرته وحملها معه طيلة الوقت فيوثقها ليتخلص منها، هذا ما أجتهد في فعله وهو التخلص من الأمكنة والمواقف والأشخاص بكتابتهم حتى لا يبقى لي في وحدتي سوى فراغ عقلي من الماضي الكبير. يا «ماجد» لم أعد الأنثى التي حملت الجرح تسعًا في صدرها وكلما جاء موعد المخاض أنجبت البكاء. فات وقت اللقاء، تبدل وجهي، صار صوتي خَجِلًا يدسّ في بحّته حكايات الصغار، لنلعب ونرسم مدينة فارغة من الأصدقاء، فأسرارنا لم تعد قابلة للتداول مع الغرباء. هذه الحياة جميلة بلا أصدقاء.

«مي»

أمارسُ السقوط، أعلم أنهُ يحفر الصخر حتى يرتشف قطرات الماء، أقسمت أن أكون معه، لا أعلم هل أردت الماء أو السقوط أو الضياع، أو أن أكون بعيدًا عن كل شيء. في مساحة ضيقة أتنفس، المكان في العالم السفلي مُخيف، أودّ أن أقذفُ بكل أحلامي في حاوية، وأرمقُ عامل النظافة يأخذها في صباح الغدّ، وأتبعه وهو يتخلص منها، ونحتفل. جمعت عند الباب أحلامي ، أوراقي أوجاعي أوهامي أمنياتي حتى أنفاسي، أرجو أن لا أترك أثرًا، ساخطٌ على نفسي أولًا، وأشعر بالاشمئزاز من ذاتي، بدأت أمقتني، ولا يمكن أن يكون ما أكتبه إدانة، أنا لا أؤمن بما كتبته وبما أكتبه الآن، وبما سأكتبه لاحقًا، هذا الإنسان القابع بداخلي لم أعد أحبه، لم أعد أرى فيه أيّ شيء يستحق أن يكون مصدر بهجة. لم أعد أرغب بي، أضع روحي على عمود النور، بجوارها رقم يعود لِشيخ يساعد على جمع رأسين بالحلال، ومعلم دروس خصوصية، وشقة للإيجار، والآن روحٌ للعابرين. وكل الحكاية: رجل، يبحث عن نفاية لأحلامه. لا تهتمي يا «مي» فنحن نكبر لنكتشف حجم حماقاتنا بالأمس. بالمناسبة أنا رجلٌ غير مهذب. وأجدني الآن مُضحكًا وقادرًا على قول نكته لطيفة، خذي هذه: كان رجل يحتضر بحضرة صديق له،

سأله صديقة: هل من وصية؟ أجاب المحتضر: في خزانة المطبخ قارورة خمر عتيقة يصل عمرها إلى مئة عام، ولي مطلب صغير أن تسكبها على قبري بعد دفني مباشرة. ردّ صديقه: أتسمح لي أن أمرّرها عبر كليتيّ أولًا.

هل أضحكتكِ؟ لا أجزم بذلك، وأجدني الآن أبتسم من سخريتك واستخفافك. أرغب في أن أستمع للمزيد من الشتائم، يحاصرني إحساس بالفرح كلما سمعت كلمة وقحة يخرجها أحدهم بحنق وغضب يكاد يفتك به، أودّ أن أراقب الصراخ واللعنات وحركات الأيادي تعلو في كل اتجاه، أن أسمع صوت خدوش وتأوهات متتالية، أن يستغيث مغلوب على قوته شخصي فأخذله وكأنني لا أنتبه، أنا أنتبه ولكن سأخفي جُبني بتجاهلي له، أنا جبان وسخيف وممل. وليست مشكلة أن تكون جبانًا، الكل يشوبه بعض الجبن والهلع. ولا ضير في أن تنتابك حالات سخف متفاوتة، لا تجزع فأنت تريد أن تبدو ظريفًا وتعجز. المعضلة أن تكون مملًا! أن تحاول الاستظراف وتفشل، أن تبحث عن كل أساليب الترفيه لتنعم بالمرح فلا تتمكن من ذلك، تقضي وقتك في حفظ موسوعة الطرائف وطرق زرع الفكاهة وترسب في امتحان التجربة. لا ترهق نفسك فأنا جربت كثيرًا واستسلمت أخيرًا، تكيّفت مع واقعي الذي يقول إنني معقد وجاد ومرهق، وبت انسجم مع تأفف الجميع مني، لذلك أتفهم حين يغيب أصدقائي عن الحضور في مناسبة سأتواجد فيها، وعن تكرار اعتذاراتهم البالية حين يتجاهلون دعوتي للقاءات لا أعلم عنها، وعن عزلتي المفروضة عليّ لأن الجميع يلفظني، لا أملك فعل شيء حيال ذلك، لا أملك إلا أن أعترف بأني حالة تذمر مستديمة. لا يهمّ

كل ما اعترفت به؛ اعتقدت أن الحياة ستمنحني فرصة أن أتغير، كنت سأهندم ألفاظي، وأرسم وجهًا ملائكيًّا مكان ملامحي العابسة، وأتحدث بهدوء في كل وقت يستدعي أن أيقظ لساني وأثرثر، كنت سأتسامح مع كل الحماقات التي اقترفتها حتى تخفت حدّة جلدي لذاتي، كنت سأحضر في الحياة بشكل لائق، بشكل لائق وفاخر لو منحتني المزيد من الوقت. الآن ما يسيطر على علاقاتي البسيطة هي كثرة أسفي، وترديد جملة: أعتذر لم أقصد، أو: لقد أسأت فهمي، وأحيانًا: لم أتعمد ما حدث، ومرة قلت: يبدو أنني تجاوزت سقف مغفرتك فعاقبني. أنا بسيط ومغفل. اللعنة وليذهب الجميع إلى الجحيم، لقد قلتها، لقد صرخت دون حذر، لم أتحاشَ خدش مشاعرهم، لم أكترث بردود فعلهم، فقط أوجعتهم وقسوت عليهم، ربما انتقامي ضعف في ذاتي، ربما هذا التصرف سيعيد هيبتي. فعلًا يجب أن أتخلّى عن متابعة انطباعهم، لن يتغير شيء، لن يأتي اليوم الذي أكون فيه برفقة أحد، لذلك من الجميل أن أحترم وحدتي وأعيش كما يحلو لي، فالعالم لا يسكنه غيري، وليس لدي أصدقاء، وأنتِ لستِ صديقتي أيضًا.

«ماجد».

الساعة التاسعة وثلاث وعشرون دقيقة صباحًا: تقدر زوجتي على مواصلة الصمت فترة طويلة، وأعجز عن فعل ذلك، أشعر أن غيابها يفتك بي، وأردت أن أقول لها: أرغب في تخدير اضطراري، فلن يطرق نافذة قلبك غير روحي. أحضري مقصًّا ومزقي هذا الغياب بأحجام متساوية، ضعي ما تريدين من الوجع في قلبي، وضعي ما يزيد عن حاجتك في حقيبتي. رتّبي حُزنك في صدري، وصنّفيه حسب الأعمق. لا تدعي ألمك الأخير في الواجهة هو لم يبرد بعد، أنصح أن يكون في راحة يدي، دعينا نبكيه بعض الوقت. علقي بعضًا من أشواقك في عنقي، أنا لازلت أعبر بالقرب من أنفاسكِ وأبحث عن شيء يخصّني، لا تسمحي لغيرك بأن يأخذ شيئًا مني، أنا أمنحك كل ما فيّ، حتى تمنحيني بعضك. لا تطلبي منهم أي فرح واسمحي لروحي أن تهبك الجمال، فقط افتحي صدرك بحجم نقطة، وأعدك أن أعبر كما تريدين. ترغبين أن أكون روحك أكون، أن أكون ابتسامة صغيرة، أو ربطة حول خصلات شعرك، أو وردة على وسادتك، أو لحاف يغطيك.. تخيّري وأفعل. الأهم أن تحدثيني الآن وإلا فإن هذا العالم سيسرقني، أنا لا أفكر إلا بك فخذيني إليكِ، أرجوكِ. راقبي الدقائق معي تبدو اللحظات أكثر غُربة حين أقضم الوقت

وحيدًا، أتشعرين أنني مُغترب؟ أنا أشعر أنني منفي. مددت يدي حتى أشاغب أصابع كندة، وكانت يدها باردة، شددت عليها وكنت على حافة الغناء بأن فيني شجن، كلما غامرت في قوله تذكرت رداءة صوتي، تراجعت وماتت القافية في حلقي. توقفت عن محاولة الكلام، قبّلت يد كندة فصارت دافئة، حينها قلت: بماذا تفكرين يا كندة؟

-ما أعرف، بس وحشتني ماما.

شعرت أن قلبي يقفز في مكانه، يصنع ثُقبًا في صدري، كأنه قلم يخترق ورقة دون أن تنزف، تجاهلت أفكار كندة وركّزت على الطريق الذي صار كأنه لص هارب وأنا الشرطي الذي يطارده، ودائمًا ينتصر اللص.

رسالة: 103، عصفور قصّ جناحيه ليعلن عن استعداده للسكن في قفص.

استيقظت اليوم مُبكرًا، حملت جسدي نحو المقهى الواقع في زاوية المجمع التجاري الذي أريد أن أتجاهل اسمه، اتخذت من الطاولة الأولى مكانًا لي، بعد باب المقهى بخطوتين كُنت أجلس وحيدة، مُنذ ميلادي والوحدة هي رفيقتي يا «ماجد»، بعد هذه اللحظات الطويلة والمواقف والحروف والأصدقاء واللقاء والتفاصيل والتسكع والغربة والثرثرة والهمس والبوح والغياب أكتشف أنني وحيدة. أشعر أن روحي مُنهكة، وخشيت أن أختنق وكأنما الطفلة التي كُنتها داهمها الربو مجددًا، بحثت عن فرح أقدّمه لقلبي لعله يتجاوز خيباته فما وجدت. لم يزعجني في هذه اللحظة إلا الخواء الذي صار يعوي بداخلي. مؤلم هو التفكير في الحياة حال عجزك عن فعل شيء ملموس. حالة جمود تصيب كل شيء حولي وكأن علامة توقف كبيرة ظهرت، كأن صوت انفجار وقع في مكان قريب وننصت لنتأكد مما حدث، ثم تستمر الحياة، أنا بعد خسارتي لحلمي لم تعاود حياتي المضي قُدمًا، هي تراوح مكانها كما يفعل جندي حين يأمره رئيسيه: مكانك سر. أعرف

هذا الإحساس رغم أنه لم يتم تجنيدي مُسبقًا، في هذا البلد يُغنى بالمجتمع المدني القادم وهو في الأصل تشكل عسكري بحت، مر زمنٌ طويل لا يعرف الرجال في بلدي مهنة غير العسكرية، ولشدة إخلاصهم لوظيفتهم جعلوا منازلهم ثكنات فقط، دعني أسألك: هل تلذذت يومًا بالسلام الملكي؟ أنا عني أشعر بنشوته حين يلعب المنتخب فقط، لحظة قتلت ذبابة الآن بيدي، وهذا التصرف يصعب أن تعترف به أنثى لأنه يخالف الذوق العام، أنا لا أهتم بالذوق وأسير حافية أغلب الوقت بشعر مبعثر. خطر ببالي رغبة شديدة أن أصير نادلة، أرتدي مريولًا مموّهًا بجيبين أماميين، أحدهما يحوي مذكرة الطلبات وقلمًا، والآخر أرقام بعض الرجال الذين يدسونها مع البقشيش دون أن تنتبه الإناث اللاتي برفقتهن، الرجال في بلدي شرهون للتعرف بنساء كثيرات ولو علموا أنهن متشابهات لاكتفوا بواحدة، أو لزهدوا فينا كما ندعي أننا مستغنيات عنهم لشدّة ما تذوقنا من سلطة الذكور ولا زلنا نبحث عنهم، غريبة أفكارنا كيف تتعارض مع تصرفاتنا، تعلم يا «ماجد» الأمر يشبه ما يحدث قبل المباراة من وضع خطط وتكتيك وتوقعات للنتائج ثم تكون المباراة مفاجئة، كل مباراة هي مفاجئة لوجود طرف آخر. الأمر يمكن قياسه على الزواج أيضًا، يظل الرجل يفكر ويتوهم حياة مختلفة ثم تصدمه الحياة، الصدمة الأكبر تحلّ بنا نحن النساء فأحلامنا الوردية أصغر من الصمود أمام تعقيدات رجالنا، لذلك يبدو أنه صار ضروريًا أن نتابع كرة القدم بشكل مكثف، وأن تعلق كل أم في رقبة ابنتها ليلة زفافها جُملة: احذري مفاجآت الرجال. سيخطر ببالك الآن أني أنثى مختلفة، لا تتسرع فكل هذه الفلسفة نتيجة طبيعة لو علمت أني

كبرت برفقة الأشناب، فأخوتي الأربعة كلهم رجال. أنا فقط البنت الوحيدة ولا يليق بي اسم «مي». كان من الأفضل أن يختار أبي اسمًا أكثر جفافًا وصلابة، فهذا الاسم لا يتناسب مع بدويتي مطلقًا. أتدرك أنني صمت بعض الوقت ورحت أفكر في اسم يناسبني ولم أجد، فأعلنت امتناني لأبي لأنه قرر نيابة عني، ولو ترك الأمر لي لما علمت ما أختاره. نسيت ما كنت أفكر فيه وأنا كسولة لا ترغب في أن تعيد قراءة كل ما كتبت حتى تتذكر ما فاتها، هو ليس الكسل تحديدًا ولكننا بمراجعة ما نكتبه نرتكب حماقة التعديل وأنا أقدس الأشياء على هيئتها الأولى. وضعت فاصلة كأنما سأضيف شيئًا ثم أزلتها وجعلتها نقطة، ولن تفهم لو أقسمت أنه استفزني أن أقص الحديث ثم ضربت الطاولة بقوة تنفيسًا عن كبتي، هذه الطاولة تحتفظ برائحة العطر الذي تضعه هذه الأرواح، هي ذاكرة العابرين الصامتة، كتومة هي ككل الأشياء التي تحيط بنا وتدّخر أسرارنا، ماذا سيحدث لو نطقت؟ يوم القيامة ستنطق كل حاسة في جسدنا وتخرس ألسنتنا، فكرت في الكتابة وهل هي أداة أخرى للحديث ولكنها غير مسموعة؟ هذه الكلمات لا تعدو أن تكون محاولة بليدة للاستغناء عن اللسان دون أن تُجدي، هل سمعتَ يومًا صوتي وأنتَ أكثر من وصله حديثي؟ رغبت أن أسمع صوتك وتمهلت لأني علمت أن الرسائل ستتوقف وخفت من هذه الفكرة، نفضتها من عقلي كأنها ستسقط ووجدتها تتوغل أكثر، وظللت أهزّ رأسي كما كُنت أفعل مع كتاب الأناشيد حتى شعرت بارتجاج، ولم أعد أشعر بشيء. لاحظ أنني لا أضع أي عطر حتى أوفر عليك الجهد في محاولتك التعرف على أي طاولة كنت أجلس لو حدث وزرت المكان فيما

بعد، وإن أردت أن تخمن فتجاهل أول طاولة لأن النادل يقوم بتنظيفها بشكل دوري حتى يوهم الزوار أن المكان راق وجميل، هذا ما نفعله جميعًا في اهتمامنا بالواجهة وتحديدًا ما يظهر للآخرين حتى نغويهم، فلا تصدق أعين النساء أو حتى وجوههن أو أجسادهن فربّما يكون داخلهن هشًّا كمذاق الحلويات الرخيصة التي يختفي مذاقها بعد أن تمضغها، جميلة هي كل الأشياء طالما تبقى بعيدة. الآن لا أريد أن أدوّن شيئًا يستحق وأحتاج أن ألتزم بالصمت، أحتاج أن تبتزني التفاصيل الصغيرة ولا أهتم، تتجاوزني أرواح كانت ذات يوم قريبة ولا ألتفت، تصافحني العيون التي غدرت بروحي ولا أغضب، يمرر أحدهم أظافره على جرحي ولكن لا أتألم، يحضر أحدهم على طاولتي ولا يجتذبني، ويذهب أحدهم عن طاولتي ولا يعنيني، لا شيء يحدث فقط الوحدة تزور الجميع وأنا أزورها، هي تحرّضني على البوح؛ البوح ينبش الأسرار، الأسرار تفضح لحظاتنا، اللحظة تعيش حالة تُخمة. فنجان حبر وبعض الهدوء، وبعدها أعدك أن أرسم لوحة، سأشرب الحبر، ثم سأخرجه من أنفي على هيئة دخان، راقبني، أغمض عينيك دون أن تنام، وأنصت. راقب اللوحة وهي تتشكل أمام وجهك ثم صفّق لي، ثم خذ مني نصيحة: حتى تكتب ما تفكر فيه بدّقة اجعل رأس قلمك حادًّا، وحتى تفهم إحساسي أعرني قلبك. وسأعترف أن الكتابة هي الإدمان، هي من يمسك بيدي ويُجبرني على أن أبقى لديك، أبقى وأنا أتلذذ بجوارك، أصارحك بحلمي بأن أعيش حياة طبيعة أسوة بأي أنثى، وأعجز. الآن حدثني عنك واكذب في ذلك، أريد أن أعلم غير الحقيقة.

«مي».

لا شيء يستحق أن أيقظ الكلمات من أجله. أنا أخلي مسؤوليتي من أية انتظار لحصول مفاجأة في نص هو أشبه ما يكون أن تفتح صحيفة من الماضي البعيد وتمضي برفقتها. ولا شيء مستحيل، كل الأشياء ساكنة، فقط أنصحك قبل أن تفتحي للوجع سيرة غادري الديرة. الفرح عاق يا «مي» والألم وفي، في أعلى المكتوب دمعة، وفي آخر سطر نُدبة. أحشر ذاتي في زاوية هذا الشعور الضيق. برد، وكل ما أطري البرد يذبل في صدري نبض. أنا هُنا وبيدي قائمة من أرق، امتن لمجيئك وكل ما فيك نفيس، قيمة المكان بالأرواح التي تسكن فيه، أحضر برفقة حروف تخصّك، اعزفي لحنّكِ الجميل ودعي الكلمات ترقص، لن نتوقف عن الهمس حتى نُكمل قصتنا، منذ الميلاد حتى آخر نبضة، وكأن قدرنا أن نعيش حتى نكتب، أو نكتب لنعيش الحياة مرتين. تعالي بدفء حديثك، تعالي وخذيني من أمام شيطان يوسوس لي، فيقول: ستكون في حال سيئ، ستشعر بالمّلل والقلق والضيق والحزن، ستخسر الكثير من صداقاتك. وأكذبه، فهذا حدث في العام الماضي، ولكن يبدو أنه سيتكرر لأني ربمّا أخسركِ. أفتح النافذة ويعبر الضوء، أتعلمين شعرت بك تتسللين؟ أغلق النافذة ويتجمد الضوء، وكأنما حبست خطواتك، أحضن

أثرك بجواري فيصعد دخان من رأسي، أضع أفكاري وسادة، وأصنع من أحلامي فراشة، وأتخيّل أنني أغفو في أحضان سحابة، ولا يحدث. فقط أنصحك لو جئتِ إليّ وأنا نائم لا تضعي على جبيني قُبلة واصفعيني، الفرص لا تتكرر. ارفعي قدمك بعد لحظة من وصول أختها للأرض وأمضي حتى يوقفك الموت. ثم دعيني أحدثك عن المنعطف في طريق حياتي: أتمددُّ على السرير الأبيض الآن، أتنفس بهدوء ورتابة، حياتي تختزلها الورقة المُلصقةُ فوق رأسي، مكتوبٌ عليها حالتي. يتأملها العابرون من خلف الزجاج ثمّ يتصدقون ببعض الشفقة ويرحلون. قبلَ أن يُسدل الستار على النافذة المربعة، المُتربعة في منتصف الباب الذي يقود إلى سرير يحتضنني بقوة، خاليةُ غرفتي ـ محطتي المؤقتة ـ من كُل شيء. أفكرُ في تفاصيلها رغبة أن أخلق أشياء تشاركني هذه اللحظات وأبدأ بالعدّ: مقبضُ فضي، باب خشبي، طلاء أبيض يرتديه المكان، ضوء خافت من لمبّة النيون البيضاء، أوراق مسطرة، وشاب يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا. يتفرع من أسرة تسكن بيتًا بدائيًا في وسط مزرعة. لحظة الفجر في عالم هذه الأسرة كانت ميلاد طفل. ذاكرةُ الزمن فقيرة من التفاصيل، تأخذني سريعًا إلى نقطة التحول. كنت ألعب أنا وأختي بالطين، نتخضب بعطره، ثم نعبر إلى حوض الماء لنغسل بعضًا من آثار الطين تحسبًا لعقاب لم نفر منه يومًا، ونعود مع الغروب للمنزل كالعصافير. ولكن قدّ تتأخر العودة يومًا رغبة في المشاكسة، ذهبت أختي للبيت وتركتني وحيدًا، حين ألتفت إلى مكان كانت تشغله وفقدتها فيه شعرت أنه وقت مناسب للفجيعة. الظلام حلّ فجأة، تسارعت أنفاسي وانتفضت، صارت روحي تسبقني وألاحقها،

والقدر يُسقطني في البئر! كانت لحظةٌ سريعة استجابت لها يديّ وصارت تخبط الماء بعشوائية، حتى وجدت غصن حماط يمسك بي أو أنا أمسك به، لا أعي ما يحدث تمامًا، بقيت متشبثًا عالقًا في طرف البئر، الماء يريد أن يغطيني وارفعني، صوتي فقدته من شدة خوفي، تسري في جسدي قشعريرة برد، وأتنمل، ثم مُتّ. هُناك في عالمي كلُّ شيء على حاله، تنتظر أختي عودتي، تستعد الحياة للنوم، يصرخُ أبي: بنت وَجع، وين أخوكِ؟ كأن أبواب السماء فُتحت لتلك الدعوة، إنه موعد الوجع، تنتفض أختي وتخطو بتثاقل لتهمس: أخي لم يأتِ! يستفيق الكون على صرخة أبي، وتعمّ الفوضى. يبدأ البحث وعند الثامنة مساء ـ حسب تقرير الدفاع المدني المُرفق ـ تمّ العثور على الطفل ونقله إلى المُستشفى. ورد في تشخيص الطبيب أن الطفل على قيد الحياة. ويعاني من غيبوبة كاملة، راح يطمئن أبي بأن الحالة تعاني من ضمور في الجلد بسبب الماء، وتصلب في الأعصاب نتيجة الخوف. سنضعه تحت الملاحظة، وعائلتي تضعني فوق عند الله. خلال أربعة أسابيع في العناية الفائقة كانت جملة واحدة هي ما يقال لمن يسأل: نرجو أن يصحو فكل شيء مستقر، وفي الحقيقة كان كل شيء مضطربًا كأنما مصعد عالق بداخله كلمة النهاية. صحوت لأكتشف أنني لم أمت، يبدو أنني عبثت مع الحياة فقررت أن يدفع الضريبة غيري بتوجس يسكن قلوبهم، شعرت بذلك في حسرة كل من يزورني، انتقلت بعدها للعلاج الطبيعي لمدّة ثمانية أسابيع، تحملني الممرضة من على السرير وتضعني في الكرسي المتحرك وهي تغتصب ابتسامة لم أكن بحاجتها. عملية تجميل للجلد بعد ذلك كانت تتطلب تخديري طويلًا، خشيت أن

أغيب هذه المرة ولا أعود، بدأت حياتي في أجواء معزولة عن الشمس ودرجة الحرارة المرتفعة، كل شيء قد يضّر بجلدي ولم ينتبه أحد لقلبي. وخرجت بعدها على أن يتّم متابعة حالتي بشكل دوري، بعد أسبوعين، مرة كل شهرين، ثم مرة كل ستة أشهر، وبعدها مرة كُل سنّه. في الصفحة التي لا أعرف رقمها في ملفي الأصفر الكبير كانت تحدّد وضعي: شلل نصفي مع صعوبة في النطق، وجملة صغيرة: لا يمكن إجراء عملية في الوقت الراهن، ربمّا نتمكن من ذلك بعد تجاوز مرحلة المراهقة حين يستقر مُعدل إفرازات الجسد. وتوقيع الدكتور غسّان، استشاري المُخ والأعصاب الذي ظننته صديقي حتى صفعني بقوله هذه العملية قد تُجرى بعد الرابعة والعشرين وستكون في النخاع الشوكي. ذاكرتي تحتفظ بأدق التفاصيل، بداية من الكرسي المتحرك، عدد السنوات التي شاخت في صدري وهرم جسدي، وتنبهت أن السجين والمريض وحدهم من يرمقون التقويم باهتمام خاص، ولا تلهمني ذاكرتي الحالة التي كُنت عليها سابقًا. وحينها علمت أن الطريقة تغيّرت، التعاطي مع الحيَاة اختلف، وحده الكابوس ذاتهُ الذي يداهمني منذ حادثة السقوط يتكرر؛ أرى بياضًا يقترب حتى يكون فوق رأسي، يتسلل من عيني حتى كأنه يتيّه بداخلي، أغمض عينيّ بقوة، يزداد حدّة ويتكاثر، يظهر هذا الشعاع في كل مسامات جسدي وأرتعدّ، ورجل عجوز يظهر فجأة ليقول لي: أنت لم تعد أنت! وحين استيقظ مفزوعًا أنتبه: أنا لم أعد أنا، وداهمني شعور بالغربة.

«ماجد»

الساعة العاشرة صباحًا: هذا الطريق يجعل الشمس تنام على صدر المركبة، وأفكر هل نحن من يقصّ الطريق أو أنه هو من يلتهمنا؟ خفت للحظة أن أسرح بإحصاء كم من الأرواح أبادها وترك الفجيعة بعده، ودعوت الله: يا رب سَلّم. كندة تلعب بجواري بجهاز Game Boy بحماسة، وكنت أنا في البعيد، هذه أظافر انتظارك تنغرز في جسدي وأتأوه. ولم أعثر عليكِ وأتوهم أن الحرف المُسافر من قلبي ينتحب عند طيفكِ، دثّريه في معطفك الفيروزي. فوضى في المكان تنتظر منكِ أن تعيدي تنظيم هذه الأصوات، الشوق يبحث عن ملاذ، ويدي تمتد كضوء نحو عينيكِ، أبصريني الآن. هذه محاولة بائسة للبحث عن طريقة منسجمة مع غيابك، التخلص من هذا الألم يأتي من التواجد بجوارك، على أقل تقدير أن أكون مع نبض يسافر نحوكِ. التوقيت خاطئ فلا تنظري إلى وجعي، نبضي يا زوجتي يعتاده مُؤخرًا حالة قلق، الإنصات له تشويش على سمعكِ، يكفي أن تراقبي ساعتكِ وتفكري بي. بعثت الحب على غيمة. في السماء الآن ضجيج، ستمطر بهدوء، لا تختفي تحت سقف حرمانك، تمرّدي وتذوقي نبضيّ. الصداع الذي يرتاد رأسي الآن يُرعبني، أحاول تهشيمه بالثرثرة لروحك، ولا تعلمين أن مُجرد العزف على وتر حبك

فتنة، والغناء قادم من بعيد، ونرقص دونما حذر من الوقوع، أرضنا سماء يا زوجتي. بين الرسائل ابعثيني، في ظرف صغير مُنمق- لا يشبهني بالتأكيد- جديني، وأحيا بين يديكِ. يا الله، من أين تأتين بكل هذا الوله، حتى أكادّ أتفطر ولا أصلكِ؟ وأنظر إلى الخلف لا أحد، انظر إلى الأمام لا أحد، انظر إلى قلبي أنتِ فقط، انظري إلى قلبكِ من ينبض فيه الآن؟ ربمّا كندة فقط. وشعرت أن جسدي يقف على قلمين، وخطواتي كلمات تخصّكِ. أن تكوني بعيدة ومستحيلة، أن أتيقن أنك لا تأتين، كأمنياتنا المؤجلة وأجازف وأتخيل قدومك، ثم أتحسس ملامحي بعد أن تصفعني الخيبة، وألمحُ نُدبة في جبيني، آه كبيرة جدًا يا انتظاري. ولست منضبطًا، اعفيني من قول المزيد، وملاحقة هذا البوح غير المنتهي، يبدو أنني سألتزم الصمت، وأخرسني حتى نلتقي. صباحكِ قيثارة فرح، وصباحي مساحة بحث.

ـ بابا: متى نوصل؟

ـ باقي شويه، لين تطفشين من اللعبة بنوصل، وفجأة سمعت: نغمة رسالة جديدة، وضعت يدي على صدري برفق حتى اهدأ، تمنيت أنها منكِ، وترددت كيف أفتحها، تحاملت على توجسي، وفتحت صندوق الوارد، وجدتها رسالة إعلانية. أتشعرين بحجم خيبتي الآن؟ وتذكرت:

واو وتتسع شفتي، جيم وأشد على أسناني، عينٌ تفيض بالدمع، وجع!

رفعت قارورة ماء، شربت نصفها، واستمر الطريق يحملني دون ملل.

رسالة: 113، العصافير ملائكة صغيرة، وظيفتها دسّ المفاجآت في النوافذ.

أصدقائي في صندوق وبقيت أفكر كيف أتسلل إليهم؟ بقيت خلف التلفاز أبحث عن ثقب، كنت أعلم أنني صغيرة جدًّا ويستحيل أن أقدر على العبور من خلال المنفذ الخاص بالأريل، حاولت أن أنكمش على نفسي حتى أبدو كإبرة ولم أتمكن، أخبرت أمي أن أصدقائي يرفضون أن أكون معهم ولكنها لم تنصت فالطفلة التي هي أنا لا تعي ما تقول، جدي همس لي بأنه سِحر وباركت جدتي كلماته، ولم أصدق غير أفكاري، يجب أن أكون معهم، إنهم في غاية الفرح وأنا طفلة تستحق أن تحظى ببعض المرح. كنت أستيقظ عند العاشرة صباحًا لأنه وقت المُتعة، في البداية أحببت نقار الخشب، راقني جنونهُ وسخريته. وجربت أن أخترق شجرة الرمان ولكن العكس حدث واخترق رأسي عود صغير ونزفت، هذه الندبة فوق جفني تذكرني بذلك، لا تتحسسها لو حدث والتقينا فهذه الندّبة توقظ فيّ إحساسًا بأني مهملة، وأعود أتذكر حين قال جدي: تكبرين وتأكلين غيرها. لا أعي هل كان يواسيني أو ينبهني بأن صفعات قادمة تنتظرني؟

دائمًا ما أدركت أن الكبار لا يجيدون مواساتنا نحن الصغار، والآن أيقنت أنه لا يجيد مواساتك بلطف إلا نفسك. دعنا من هذا ولأحدثك عن تويتي، هو أكثر شخصية جذبتني، كان يعيش حياة هانئة حتى تمنيت أن أقتني قفصًا صغيرًا أعتبره وطنًا ويعلقني أبي عند النافذة. حسدته فنغص عليه سلفستر حياته، فتجاهلته وتضامنت مع جيري، هذا المغلوب على أمره كان فاتنًا، لعنة اللذة جعلته طريدة الشرس توم، الذي يسعدني الآن أن جيري مازال على قيد الحياة. والذي أريدك أن تفعله معي ألا نُشفق على الضعفاء فشفقتنا تقيدهم، ودعنا مرة نتضامن مع الأقوى لأنه أجدر. كان الشتاء جديرًا بأن أفتتن بهايدي وأشعر أنها تلامسني، هي التي تعيش في محيط يشبه عالمي، رعي الأغنام والعشب والمطر، المفارقة أنها تتواصل مع ما حولها وأعجز أنا عن مناجاة المطر. انتهى الشتاء وجاء الكابتن ماجد ليزيح الجميع ويتربع في عقلي، يجعلني أنتظر المساء بجنون، النتيجة اثنين واحد وبقي من الوقت دقيقة فقط والكرة في السماء، وأمنياتي في السماء أيضًا، أودّ أن يتعافى مازن ـ يا رب أنا أحبهُ ـ ولا يشفى مازن ولا تتحقق أمنياتي وينقطع التيار الكهربائي. هذا يحدث غالبًا وكأن القدر يريد أن يستفزك فتخرج عن طورك وتتبجح، هذه الحادثة هي اختبار لمقدرتنا على التماسك والمحافظة على صلابة يقيننا بالله مهما حدث. ولم يحدث أن أكون داخل الصندوق مع أصدقائي ولكني أحنّ إلى الطفلة التي بداخلي، أتمنى أنني كنت معها ولن أدعها تشعر بالوحدة. أرجوك أن تأتي الآن، دعنا نتحدث دونما غرق، دعنا نتمرد على الكآبة ونضحك، نثرثر محافظين على مواقعنا، على

أن نقول ما لم نقدر على قوله سابقًا، الأهم لا تتركني وحدي حتى لا أتضجر، والأكثر أهمية لو لم تُشاركني عبثي ربما أتحوّل إلى مجرمة وتصير أنت ضحيتي القادمة. ولن أخذلك، لن أذهب بعد أن تتناقص المتعة، لن أقف على حافة انتظار هدايا الفرح، فأنا أُخلق ألعابي من حروفي، إنها الفرصة لتجربة الفوضى على مسرح الرتابة الواسع، وممارسة التشرّد نحو التطهر. وسأسرقك منك، تخيلني نقطة في هذا العالم وفي آخر السطر وعلى شفة مُراهقة توهم المُعجبين أنها شامة، وقبل لحظة اللقاء وبعد حكاية الوداع. ضعني في زاوية غرفتك وأتناثر، اجعلني على الشرفة وسأقفز، توهم أنني رصيف وسأقدر على استيعاب لعثمة خطواتك دونما سُخرية، الأهم أنكَ وحدكَ من أريد أن أتقاسم لحظتي معه دون ارتباط. أخشى أن آخذك معي إلى قلبي، وأخاف عليك من جنوني، ففي كل شبر من أزقة ومباني هذا الوطن لن تجد إلا الجنون، تجده يتجول كعاهرة والكل يتحاشاه، هذه صفة سيئة ولكن لا تُهم، لا تُهم لأنها تضعنا في حدود قالب هذا الصفة، وتجعلنا أكثر انتقاء للكلمات، وفي اللعب قانون مفادهُ لا شيء يُنتقى، ولم يمضِ الوقت بعد، هُناك مجموعة من العالم يُمارسون لعبتهم على طَريقتهم ويرفضون أن نُشاركهم، يشعرون بالنشوة ونحن نقف مراقبين، ونتوسل إليهم أن نكون معهم، ولن يفقدوا مُتعتهم إلا في حالة واحدة: أن نبدأ باللعب ونتجاهلهم. دعنا نلعب دون أن نغضب، دون شرط أو قانون أو قيد، هكذا تكون المغامرة، المغامرة غير المعلومة النتائج، ولكن أضمن لك الضرر الأقل من ضرر الفراغ الذي يفتك بنا. كُن معي لأني لم آخذك عُنوة من صمتك إلى صخبي،

دعوتك بالتقاطع الجميل الذي جمعنا سابقًا، والكثير من الحنين لتلك الذكريات التي مارسنا فيها العبث والجنون دونما سُلطة، قد تشعر الآن أنني حمقاء، وهذا أمر طبيعي وربّما حقيقي، فنحن لم نلعب مُسبقًا أو نتقاسم أية ذكريات ولحظات، أعلم ذلك وأوافقك. أنا أكذب الآن، ولكن ما الذي يُجبرنا أن نقول الحقيقة دائمًا، وحين تكون الحقيقة مبتورة وقاصرة على كلمات معدودة تكون بؤسًا، لذلك الخيال هو ابن الكذب الذي يفتح لنا آفاق نحو المضي باتجاه أماكن لم نكن قادرين على الوصول إليها لو التزمنا بمنطقية الواقع. أنا لا أجيد تقديم الكثير من النصائح فقط أستطيع أن أتقاسم معك هذا الحزن، أستطيع أن أخبرك أنه مثل الريح التي تُعرّي الجوهرة التي بداخلنا، الجوهرة التي تلوثت بفعل البيئة المُختنقة والأماني المُنكسرة والأحلام المُبعثرة، الحُزن العتيق كفيل بالنبش عن أجمل ما فينا وإبرازه. سأجرب أن أصفعك الآن وأعلم أن أصعب ما في الصفعات انتظار الردّ، لذلك بعد الصفعة سأهرب حتى لا أفقد لذّة الانتصار. ولا أكذب لو قلت إنني أكره اللعب، وأكره صُراخ الأطفال وبعثرة المراهقين وحماقات العاشقين وحنين المُغتربين، أكره أيّ شيء يأخذني من هدوئي. ثم دعني أسألك هل بدأت تشعر بالحنق مني؟ أرجو أن يطول حنقك وتكرهني، حينها أخبرني حتمًا سأشعر بالفرح. ماذا لو طرنا حتى السماء؟ حتى نرتوي من غيمة ونثمل، نشعر أن تناثرها حالة عُهر، وهو حالة سُكر مُنمق، تقودنا إلى إدمان التجربة، تجعلنا نُغمض أعيننا مُجددًا ونتخيّل. فُرصة لكل شيء، فرصة أن تُمرّر يدك على تمثال وتنتظر منه أن يُبادلك المصافحة، وتجزم أنه كان قادرًا

على معانقتك قبل أن تنام، وأنه أحيانًا يتمدد بجوارك على السرير، وذات مرة أحتضنك في لحظة دفء، قد تضيق ذرعًا بقولهم إنك مجنون ولكن أنا أصدقك، وأعلم أنه عانقك ونام بجوارك واحتضنك، أعلم ذلك وأكثر عن هذا التمثال المُهمل في زاوية قصيّة، هذا التمثال هو إنسان، هو إنسان اغتال الخراب روحه وبقي هكذا مساحة للفراغ والغبار والدخان. كأنه التفاصيل الصغيرة للغياب، وتجعلني أفتعل الغياب في الحضور، حتى يبدو الحضور كأنه انطفاء، كأنه لا شيء، يبدو على المكان أنك فيه ولست فيه، جسدك يسكنه وروحك تحلق بعيدًا عنه، ربمّا لاحقًا أفتعل الحضور في الغياب، وأجد جسدي مقيدًا وروحي هُناك طليقة، الغريب أن صدري لا يتسع لاثنين في ذات اللحظة، مُخلوق مُسبقًا لسجين واحد. لكنه الفقد يا «ماجد»، الفقد وباء وجريمة تُرتكب بحق المُجتمعات الصغيرة المتقاربة، تغفل عن مواجهة الفيروس الذي ينخر ساق اللقاء، وتبدو بعده عاجزًا حتى عن التمني، تعلم أنه من المستحيل أن تستمر من دون أن تشعر بالقهر، هذا الناتج عن الغياب المتولد عن فراق المُقربين. أبيض وأسود، رجل وأنثى، نهار وليل، بحر وبرّ، أرض وسماء، فرح وحزن، متناقضات تطول لو أردنا أن نضعها في قائمة. كل الأمور نسبية بالفعل، نسبة الدافعية، نسبة المحصلة، نسبة تحقق الهدف، نسبة.. نسبة. حتى كدّت أنفجر! النسبة مُضلّلة، وهذا يجعلها قريبة من اللون الرمادي، تُعلن فقد الهوية بين بياض الفرح وسواد الحزن، بالرغم أن الفرح قد يحمل اللون الأسود حين يأتي مُحمّلًا بالغموض، وعلى العكس بعض الحزن أبيض كمساحة فارغة واسعة مليئة بطلاء أبيض.

كلون الغرفة التي أخبرتني عنها لتثير شفقتي وأتعاطف معك، ولو لم أقل لك أخبرني بغير الحقيقة لصدقتك، أو تعلم صدقتك تقريبًا لأنك جعلتني أكثر من مرة أدفعك على الكرسي المتحرك دون أن تعلم، وكرهت الماء ولن أفكر مجددًا في تعلم السباحة، أخاف أن يغدر بي. المهم لعبني ولّا بخرب.

بالمناسبة أنت كاذب محترف وبدأت تروقني.

«مي».

أول ما خطر ببالي من الألعاب كان أرجوحة، ولكني أكره المراجيح لأني حين أدفع سأكون في وضع التضحية وهذا دور لم يعد يروقني، وإن أردت أن أكون المحلق فستنتابني حالة دلال أجدها لا تتماشى مع جفافي، لذلك أراقب المراجيح ويثيرني أن يدفعها الهواء بينما تجلسين عليها وتنتظرين. وأحبّ البالونات فيبدو أنها أفضل من الوضعية التي رضيتها لنفسي يومًا حين جعلتني منفضة سجائر لغضب العملاء بينما كُنت أعمل في خدمتهم، ولم تعد تعجبني البالونات الآن لأنها فارغة وبدينة، وأنا منزعج من كل بدين بداية بِي. ما رأيك أن أصير مظلة؟ فالمظلة رقصة، أنثى تدور بثوب منفوش وترسم دوائر، ولحين معرفتي بمن يقف على المظلة سأرفض أن أكون أقدامًا له. أنا أرفض كل شيء، أكتفي بالمراقبة ولن ألعب لأني كبرت على ترفيه جسدي. لم يعد يغريني شيء، يثيرني فقط الجلوس في زاوية مقهى ومراقبة الحياة وكأني حكم رابع يهتم بالتوقيت البدل ضائع. ضائع أنا، وأشعر أنني كلما توضأت لصلاة الوطن، تذكرت أن قبلتي السفر، استغفرت خطيئتي ورحلتُ.

أريد أن أغفو الآن على ثرثرة الملائكة وتسبيح المستغفرين، تنتظرني وسادتي كي أسكب بقية وجعي، وأتظاهر بالأرق لأخدع

كوابيسي، فأفقد حلمي وتخذلني دمعتي. أدع لصوص المشاعر يتهافتون على نزفي، يترقبون نحيبي بملامح عابسة، لا يتكرم أحدهم ويمسح على صدري فتنطفئ روحي. واستمر في القول إني بحال جيدة، أوهم نفسي أني أفضل من البارحة بينما معدل نبضي يبدأ بالهبوط ولا أكف عن المكابرة: أنا بحال جيدة، أنا بحال جيدة جِداً. أنا الذي يظن أن أحداً ما يراقب تصرفاته، فيعدل ياقته ويهندم مظهره، ثم يبحث عن مكان يخفي فيه وجهه حتى ينتهي من تصوير مشهد لعدسة الحياة. ها أنا أقف على حافة هذياني، يغادرني حتى جسدي، يقتات الوقت على نبضي، يستخدمني ليكمل مشوار الحياة، ولحظة أن أتلاشى يتخلى عني وينفيني خارج الزمن، فلا يبقى إلا رماد وحدتي، أختنق بشكل منمّق، كي يصير رحيلي موتًا ناعمًا. وأجتهد في مغادرة مكاني وتقيدني حيرتي، لن تنفكّ عقدتي حتى أنفث خيبتي في ذاكرة الماضي وتعود حياتي للسير من جديد. ضيف أنا يا «مي»، ولا أطرق أبواب النساء. لنلتقِ خارج أسوار مدينتك، كسائح اكتفى بالسفر ويمقت الأوطان. لنلتقِ أرجوكِ وأستقر، هذا القلق يقودني نحو التفكير، وأعلم أنه يودّ أن يأخذني إلى التوتر. أقطعُ تتابع خطواته وأغمضُ عينيّ، أحمل جسدي نحو ذاك السرير وأشعر أن الأحذية والأسرّة من ذات الفصيلة، تُرافقنا وهي خاضعة كحاجب وزير قدره أن يخضع حتى يعيش. وحين أغرق في النوم يولد حلم، يبحث في الظلام عن أنثى مضيئة تُرضعه ولا يجد، يرفعُ صوته بالبكاء فاستيقظ مُنزعجًا ويموت الحلم، لا ألمح من بقاياه إلا غصّة، تخنقني لو حبستها، أفتح فمي عن آخره، أصرخ بأعلى صوتي وأنصت فيأتي الصدى غريبًا، يبعث بداخلي

ابتسامة يتبعها حيرة، كيف تعود ثوراتنا بالنعيم على أرواحنا؟ ربمّا أنه الانتصار على الضعف الذي يُصيبنا حينما نتوهم أننا عاجزين عن التحرر. بائس أنا كلاعب بعد أن سجل الهدف بحث عن حضن يرتمي فيه فلم يجد إلا ظلّه، فداس عليه وخرج.

كُنت قاب نصين وقصيدة، وفجأة شعرت أن كل الكلام ذبل في قلبي، لم تعد تُمطر غيمة الإلهام داخل صدري. أمسك بقطعة شوكلاته وأقرأ المكونات لأجد كلمة جديدة لا أعرفها، أبحث في مشط محتويات المُعلبات والألبان عن شيء يخصني، صرت مهووسًا بالتسوق في المحلات التجارية الخاصة بالمواد الغذائية ومطالعة ما يدوّن على المنتجات المتعددة، يمكن أن أدخل وزارة التجارة كماركة خاصة بإنسان يمكن استنساخه وبيعه فيما بعد، كل شيء الآن قابل للبيع حتى أنا. كل الأشياء تغيّرت، ترتفع الأسعار وتنقص قيمة الإنسان. مُرهق هذا التفكير وكأنك تريد أن ترسم مخططًا ولا تعلم أين تضع المسطرة وأين تضع الخط الأول، أنفض رأسي من الغبار الذي استوطنه منذ أن جفّ عقلي، يتصاعد الدخان ويرسم غيمة لا تمطر وتذروها الرياح، أفتح صدري حتى أطمئن على هذا الجهاز الصغير البديل عن قلبي، أوه إنه يعمل بانتظام. اتجه نحو مكتبتي بحثًا عن كتاب جديد، كانت هُنا مكتبتي، من يعبث بأشيائي؟ ذات الصدى المعتاد يأتي ويهمس: أنت! يدور الحوار العقيم المتكرر، النتيجة الحتمية المعتادة تحدث، أتشنج وأسقط على الأرض، تظهر لافتة على بوابة غرفتي: عُذرًا، أنا مشغول بترميم الرجل الآلي. هذا اختناقٌ مُتأخر لن تسمعيه، لن تأتي وتفتحي نافذة في السماء، هذه الكآبة فوق

رأسي كقبعة، أحتاج أن أموت بالقدر ذاته الذي أحتاج فيه أن أحيا، وأترنّح على الرصيف المُمتد من وجع إلى وجع، ولا أعرف كيف أكتب الكثير من الكلمات بترابط في موضوع في نص في قصة حتى تكون مكتملة، متى اكتملت فرحتنا أو لحظتنا أو حكايتنا؟ كل الأشياء ناقصة. وعادتي أن أكتب فكرة وأنوي أن أكملها، ولا أفعل. عادتي أيضًا أن أتعمّد قطع التواصل مع العلاقة التي تكاد أن تكبر، وأن أبترّ الجُملة في الجزء الأخير، وأن أحضر إلى أي موعد بعد الأخير، وأن أعلم من الحياة أقلّ مما يفترض بكثير. الرسالة الأخيرة لم تكتمل أيضًا: أين كلمة أحبك؟ أريدك أن تقولي أحبكَ. ثم سأعترف أن الكتابة إليك كانت ممارسة شيء مُختلف، ثم تشعّبت الحكاية، ويبدو أن قدري يتعارض مع الكتابة أيضًا، يجب أن أصمت، فأنا لا أعلم يقينًا بما يحدث. التعب حلّ بأطراف أصابعي، وأشعر أن راقصة تغويني فلا يتوقف هذا العزف في رأسي. تستحق أناملي أن تعتزل هذا الهذيان، المضمار طويل وطاقتي ضعيفة، ولا أقدر على المزيد. فقط أحتاج أن أغلق جهازي، بعد أن أمسح كل اللحظات السابقة، وألغي كل الأفكار المُعلقة كمهام مؤجلة، وأستند على جدار تسكنه خربشتي، وأغفو. حتى فكرة النوم ليست جيدة، أعاني من لعنة الكوابيس، هذه اللعنة نغّصت منامي، أفيق غالبًا والعرق ينهمر من جبيني، وأشعر أن جسدي مفكك عن آخره. كريات الدم البيضاء تشتكي من نضالها مع هذه الفيروسات، المؤلم أن عقولنا لا تفرق بين الحلم والحقيقة، وتقوم بحالة استنفار عند كل نداء، وأنا عاجز عن ملاحقة أوجاعي! أخذت حياتي منحنى غريبًا لم أكن أتوقعه، وهذه التفاصيل الجديدة لا

تناسبني، أنا أقرب إلى رصيف منفي، وعمود نور تسكن أعماقه مئات المسامير، وثرثرة مع بعض الخونة وحماقات لا تنتهي، أريد مقهى شعبيًا غارقًا في الحنين، يكتظ بالدخان والحنق، وأرتشف فنجان خيبة، ثم أعيد كل ما قلته من قبل كشريط سخيف لا يكفّ عن تكرار ذات المقطع. أتمنى أن أعود إلى الخلف، قبل الميلاد بلحظة فقط، حينها كنت سأخرج مع الزفير، وأعيش كشيء مجهول. قبل أن تنامي فكّري بي، ولكن حتمًا بعدها تنامين، أنا الغارق في الوجع أتمنى أن أفعل أيضًا، وأنام على صدركِ، على مقربة من أنفاسك، على حافة عطرك على حدود عالمك وحتى على كلماتك وأعجز. بعض الكلمات صفعة، تهوي بك حتى مغارة الحزن، وتحيل وقتك إلى ظلام حالك، يعتمر عقلك بعض النمل، ولو أن أفكارك ليست قطع سكر، ولكنها بيضاء فقط، بياض الأشياء البعيدة. وفنجان وجعي ساخن، وأرتشف حزني ببطء، وأجزم أن لا شيء يحدث فقط خيبات تتالى. يا رب لم أعد أملك من الأمر شيئًا؛ ولم أملك من أمري يومًا شيئًا، تعهدني بلطفك. أكرهُ أن أعود، وأكره أن أستعير سكون أحدهم وأفعل، وأكره الأشياء الباردة ولكن أجدني أسخّن الشاي الذي أعددته قبل يومين وأشربه. كل الأشياء نائمة، حتى الطيور المُكلفة بأغنية الفجر لم تستيقظ، لعلها تمرّدت على قانون الحياة، الآن أنتظر الخفاش أن يقف على الشرفة ويغرد. وتنتظرين مني أن أبعثر حُزنك. وأنا أبدو ثُقبًا صغيرًا يساعدك على أن تتنفسي، أحترق، وأح، وتعالي تحسّسي برد الرماد، تعالي هذا قميصي يراوغني، فكلما نقص وزني ضاق قميصي على صدري واختنقت. تعالي أخبرك أن الكتابة حياة والكلام موت، فصوتي قد

يضيع وحرفي خالد للأبد، تعالي حتى أتعافى من انفصامي، ما بين روح فيكِ، وروح فيّ تحن إليكِ. وأعلم أنك لن تفعلي شيئًا من أجلي، ولا يعنيني ذلك. ما يعنيني أنني كتبت هذه الرسالة خلال خمسة أيام لذلك هي مبعثرة كعمري.

«ماجد».

الساعة العاشرة وثلاث عشرة دقيقة صباحًا: بدأت تُمطر، رفعت كندة عينيها لأول مرة عن لعبتها فجاذبية المطر كانت أقوى. ألم في منتصف ظهري، أرهقني هذا المقعد، أتململ وأغيّر جلستي، والألم لا يكف، يبدو أنه تضايق مني، أعتذر من الألم. وأعتذر من قلبكِ حتى لا تموت نبضاتي داخله. الحبُّ هو أن أهذي بكِ، أن أبحث عني فيك، أن أتصالح مع الأقدار، أن أنبض بصوت ينطق اسمك، أن أروي حكايتي الممتلئة بتفاصيلك، أن أتنفس روحك وأحلق، أن أتسامى عن كل أرض وأصل سمائكِ، أن أستقر بجواركِ وأحتفل، أن أكون إنسانًا أكثر بكِ، وأن أكون تمثالًا بدونكِ، أن أعيد صياغة اللعثمات وتبدو بتلات شوق في صدرك، أن أدعو الله أن نكون معًا، وأن أقسم بالله أننا معًا رغمًا عن الحواجز، ونتقاسم الحياة. نافذتك النصف مفتوحة، تسمح للفراشات بالسكن في عالمكِ، دون أن تخشى الاحتراق من وهج عينيك. امنحيني نجمة، ابحثي عن وسام وأحضريه، وضعيه في زاوية مذكراتي، أنا أتقن التعليمات، وأنفذ كل نصائحكِ يا معلمتي. أفرش أسناني مرتين، ولا أرتشف أية قطرة من المشروبات الغازية، وأنام مبكرًا مثل العصافير، واستيقظت مُتأخرًا مثل الأمنيات. ولن تسمعيني، فقط ابعثي إلى قلبي رسالة

فأنا أجيد التخاطر، وأجزم أنني أستطيع سماع نبضاتك، فقط حين تكون بوصلة قلبك تشير باتجاهي، أعدك أن أنصت، قولي المزيد أرجوكِ، أرغب الآن في الحياة أكثر. الكثير من مشاعري تصطف على عتبة روحكِ، دعيني أنظّم وقوفهم، ليلقوا عليك تحية الأوفياء. مكبوت أنا يا زوجتي، فبعد كل هذا العمر أجدني خاليًا من كل شيء، مُنفصلًا عن كل هذه القلوب التي تطوف بالقرب أحياناً، وتعبر من بعيد باقي الأوقات، هذه الغُربة يا أنثاي تُحرّضني على الشوق لك أكثر، فقد سئمت بعدكِ. وسئمت كندة سرحاني فقالت:

-بابا، بغير اسمي.

-ليه مو عاجبك؟

-عاجبني، بس سوسن بنت عمي تناديني كندرة.

- هي تعبث فقط، ويمكن لأي أحد أن يضيف حرفًا على أي كلمة ويحوّرها، أنتِ كندة، وليذهبوا. .

ثم سكت حتى لا ألوث عقل طفلتي بالشتائم، وانعطفت عند محطة الوقود، والمطر ينهمر بخجل.

رسالة: 120، كل عش هو وطن لا يحتاج أن يقرّر أحد كيف يكون شكله، حُرّة هي العصافير.

قبلًا السلام، وبعدًا وعليكم السلام. مرتين، مرة حين تأتي، ومرة حين تغيب. أنت لا تأتي أو أنني لا أراك؟ جرب أن تمضغ الحكايات مثلي، أنا يصيبني السوس في ذاكرتي، ولكن أزور عيادة الأسنان كثيرًا، ولم تعد تفيد جلسات التنظيف عند الطبيب الوسيم، هو جميل جدًّا صدقني بالدرجة التي تُغريك أن تعود كل يوم وتتعذر أنك تشعر بالألم، وأنت فقط تبحث عن المزيد من المتعة، ولأنك رجل فأنصحك ألا تقترب من عيادات الأسنان الخاصة حتى تعلم أن الطبيبة قبيحة! منذ البارحة وأنا أنتظر، أحياناً أستأذن الطريق حتى يأخذني، أودّ أن أغيبَ فيه لأنه يشبه تضحيتي، لطيفة أحزاننا حين تفضحنا، تعصف بهدوء الذاكرة وتستدعي كل الوجع، وأتساءل: من أيقظ همّي؟ يا تعويذة الضعفاء كيف نحصل على الأصدقاء؟ خراب، وكل ما في المدينة سراب، ولو احتضنت سور المقبرة لصاح بك: ما نستقبل أغراب. تصيح به، بكل ما فيك وكاتمه، يا وطن ليه. ولا أحد يجيب، لا يهم، لعلك تتذكر الأغنية التي أهديتها لي يومًا ما، الأغنية

الحزينة الرتيبة يرتفع صوتها في رأسي الآن، وأتوهم أنك كذبت في كل ما ثرثرت به، ولكن من ينزع الخناجر التي سكنت صدري. تعال لنكتب معا نصًّا دمويًا ثم نلتهم الطريق مستندين على سيجارتين. جفّ صوتي يا «ماجد»، وثقبت أذني، وما بقي لي إلا الكتابة. تعال لأخبرك أنني مجرد حكاية سيئة، ويلازمني شعور كئيب، يجعلني أفكر في خطيئتي الأولى حينما بعثت لك برسالة. راقب كيف تغيّرت النوايا؟ وصفت فعلتي سابقًا بالمغامرة والآن هي خطيئة، سأكفر عن تصرفي بالتضرع في وقتك القادم، سأدعو الله أن يقطع حبل وصالنا، راقب بدقة هكذا تكون كلماتي حال توتري، كأنك تقفز في لعبة الحبل، الآن أتعثر في أفكاري وأسقط، ولكن لست وحيدة، أنا أفضل حالًا منك، أنا سيئة وحزينة وأشغل بال أصدقائك. طفشانه بس بسوي إنه ولا همني يعني، الكل يريد أن يعرفني وأنا أرغب في أن أخيفني أو أخوّفهم مني، فتظهر لي حياتي في أحلامي، وأستيقظ فأضحك مني، وأضحك عليكَ. أضحك عليك لأنك تراودني عن سرّي، وأنا جئتك كي أفضحني. اصمت وأجيء بكل قشي، فننصب لنا خيمة، ونفرش الأرض بغيمة، فنجعل الكون ورقة، ننفثها، فنقرأ بعض وجعها ثم نقلبها لنعانق باقي فرحها، ونصلي. ولا أقدر على مواصلة حديثي عن كندا، حتى خشيت أن خطأ ارتكبته حين جئت عليها، سأخبرك عنها فيما بعد، فيما بعد التي أجهل متى تأتي، لا تنتظرني، ولا تحاول أن تعرفني، أخبر صديقتك التي اتصلت في وقت متأخر وأنت في الفندق أن إحداهن تغازلك أو تسخر منك أو تستخف بك، أخبرها لتعلم هل ستوقظ غيرتها أم أنك تخاف أنها استغنت عنك، سأفعل مثلها وأستغني عنك قريبًا، لا

تتضايق لأن وضعك لا يعدو أن يكون وضعك وحدك، أو تضايق، أفعل ما تقدر على تحمّله، ولكن لا تجازف بإرغام روحك على الإحساس بشيء لا تعرفه، بوضوح: لا تتخيل أنني سأحبك! أنا في حالة بكاء طويلة، أزفر كل حزني وأنشج، أودّ أن أقول لك إنني هي التي تبحث عنها، وأن أُصدق أنك أنت هو الذي أريده، ولكن لست منكَ، أعتذر بشدة، وأرخي رأسي بنحيب متواصل، وأردّد: ربي أردتني أن أكون هي التي يريد، ربي كيف أكون؟

«مي».

سأعيد تنظير المسلمات، تعالي نختلف على كل الأشياء التي اتفقنا عليها سابقًا، ونرفع أصواتنا لنثبت حجتنا. تعالي نفعل أشياء غريبة، نتخيل أننا أخوة، لنتساعد الآن لنجد لكل منا عشيقًا مناسبًا. لنتبادل الأسماء، فنجرّب كيف ندلل أنفسنا في غيرنا. لنعترف بخطايانا التي خشينا أن تفضّ خصوصيتها، ونخفي دهشتنا من حقائقنا. تعالي أخبرك أن أجمل أنثى هي التي تقدر على تغيير مزاجها لتفاجئك بأنثى لم تكن تعرفها! لنترك كل ما سبق ولنبحث عن نقطة تتسع لنا، عن مكان فارغ في هذا العالم يمكنه أن يضمّنا لدقائق، يمكنه أن يضيق علينا ليقربنا حتى نلتحم ببعضنا ولا نتحدث. ندع أصابعنا تتشاجر، سأضع أنفاسي حول عنقك، سألهيك بالقبلات بينما توضّبين فوضى صدري، سيرتفع صوت النبض فنرقص، لن أفلت من حضنك، سأتقرب إليك بخشوع وألثم شفتيك، لا تنتفضي بقوة، تمالكي نفسك وزيدي في تأوهاتك، بقي أن تفتحي عينيك وتخبئيني، سيراني الكل فيك، وترين العالم من خلالي. وقبل أن تنامي انزعيني بسرعة، أرجعيني إلى الصندوق الذي يلمني، وغداً حين تستيقظين- غدًا البعيد لو تعلمين- غدًا الذي يناسبك وتبتهجين فيه، في الغد الذي يروقك، أرجوكِ خذيني مرة ثانية وأبصري بي، ولحظة أن ترمشي سأتخيلك

تقولين: أعشق الحياة لأنك عدساتي اللاصقة، مجرد شيء مؤقت فقط، وبعد: غضّي الطرف عن كل ما اقترفته وسامحيني، وأغفر لك دون أن تطلبي ذلك، الأهم أن نلتقي، أن نتجاوز هذا الجفاف الواضح في رسائلنا، أن نصل إلى الحقيقة، الحقيقة الوحيدة التي يمكنها أن تتشكل من وجودنا فيها، نحن نلاحق بعضنا، يكفي أن يلتفت أحدنا ونلتقي. أتسولك أن تكفي عن مراوغتك يا شقية، وسأتوقف عن كبريائي، سأتخلى عن غروري وأتحلى بالدفء والذوق، سأجتهد في أن أبدو رجلًا صالحًا من جديد، ملاذًا شاسعًا لكل أحلامك وهروبك، وتسكنين داخلي، تسكتين الآن لتستعدي للرجوع إليّ، افعلي ذلك بسرعة، أتسوّلك بكل فرح أودعته صدركِ، أتسولك بأي شيء يعني لك أكثر من أي شيء سواك أن تعودي، أن تعترفي لي الآن أنك لا تعبثين بقلبي، ولا تنوين أن تستعجلي موتي، اعترفي بأنكِ مني. ثم توقفت فجأة فلا شيء يدفعني لقول المزيد، فأنا بارد كقمة جبل السودة، بارد وعسير جدًا، أعرف مواطن ضعفي وأخفيها، أهرب من الجميع باللجوء إلى كهف صغير في صدري، موحش ما حدث لي في صغري، لحظة أن عاقبني أبي وأجبرني على المبيت خارج المنزل، هو لم يكن منزلًا بالطريقة المعتادة بل جزء من الجبل، يتربع في منتصفه وكأنه سيصرخ بقريتنا التي تنام في الوادي، منزلنا المنزوي ظل علامة شقاء الاختيارات، وكأننا نناضل من أجل الحياة، نناضل حتى نحظى بالقمة، لنصبح في الأعلى، ونبدو كشرفة مهمتها مراقبة الوضع كل حين، كنا حصن الحماية، أنا وأخوتي جزء من الحجارة، يحدث أن يختبئ أحدهم خلف جمودنا، يختبئون في ظلال وقوفنا لمتابعة أمان القرية، لم

نتعم بحياة بسيطة، كنت أريد عائلة صغيرة تعيش بطريقة روتينية مملّة، كنت أرغب بأحداث مكررة وتفاصيل مستهلكة، كنت أتمنى أن ألتقي بالبقية من أهل القرية وأخبرهم عن حلمي، عن حاجتي لقضاء وقتي بطريقة هادئة. كم هي جميلة تلك الحياة البسيطة؟ الأجمل أن تكف عن البحث عن خيار أفضل في الحياة في الوقت الذي تعجز فيه عن معرفة أي خيار يناسبك. أي تفرع هذا الذي يجعلني أتحدث عن المكان وأنا أريد أن أخبرك أنني نمت يومًا برفقة الظلام، تقاسمت مع الليل مصافحة الكوابيس والخوف، تذوقت في وقتها كل هلع الضياع، للحظة أدركت أن كل شيء يتبرأ مني، وبعد أن أدركت أنني وحيد وبائس أضعتني! وحتى اللحظة أبحث عني كي أحبني، كي أصادقني وتختفي وحدتي. لنغلق هذا السرد إذن، ونترك كل الأسئلة الغامضة معلقة في فضاء حيرتنا، كوني بخير. كوني أنتِ التي لا أنتظرها، فأنا كما قلت سابقًا: انتظر اللا أحد .

«ماجد».

الساعة الحادية عشرة وثلاثون دقيقة صباحًا: بعد ثلاثة أيام نكمل ست سنوات منذ زواجنا، انتبهت لهذا الأمر لحظة سألتني كندة عن عمرها. توزعت هذه المدة بين أكثر مدينتين متناقضتين في كل شيء: الطائف والرياض. وأعلم الآن أن ارتباطنا كان غريبًا وغير مألوف على كل المحيطين بنا، ليس لأنك من قبيلة وأنا من قبيلة ثانية، ولكن لأنه ندر في عائلتنا أن يخرج أحد عن سياق روتين العائلة ويتزوج من أنثى غريبة، كل النساء بالنسبة لعائلتي غريبات وسيئات عدا بنات العائلة، كُنت شجاعًا في قراري أعلم ذلك، وتطلّب الأمر منكِ استعدادًا مضاعفا لمواجهة الحياة برفقتي، فمثل هذه الزيجات تحيطها نظرات الفشل من كل صوب لمجرد أن يثبتوا أنه كان اختيارًا خاطئًا، وصمدنا، ويعود لنا الفضل في الانفتاح الذي حدث فيما بعد، وصارت القاعدة كل النساء جيدات إذا صاحبها التوفيق، التوفيق الذي كانوا يسمونه قسمة ونصيب، ولم يكن في الأمر أي نصيب. كل زواج في بلدي تختاره الأم أو الأخوات والأب أحيانًا، والنساء يجلسون على مقاعد الانتظار في محطة حتى يأتي الرجل المنتظر ويأخذ إحداهن كأنها حقيبة تفي بالغرض طالما أن الحياة مجرد سفر، طريقة بائسة حقًا. في بلدي أيضًا هناك أنثى للحب وأنثى

للزواج، وأنا أردتك أنثى الحب والزواج وحدث، لأن الله أراد ذلك لنا. وبفضله صرنا ثلاثة، تمرّ بي سنواتنا بسرعة كسيارة تعبر بجواري وألمحها دون أن أقدر على التعرف عمّا بداخلها، فترة الخطوبة والزواج، مر ثمانية أشهر من حياتنا في الطائف، بعدها جاءني عقد عمل في الرياض والتحقتِ بمدرسة خاصة ثم جاءت كندة، عمر جميل من حياتنا أودعناه في قلب المدينة الإسمنتية الجافة ثم عُدنا للطائف، والآن أذهب للرياض من جديد بعد الترقية التي حصلت عليها ونحن اثنين، نفتقدك يا زوجتي، ولا أعلم متى يتعافى جرحك الذي لم أتسبّب فيه ولا تصدقيني حتى الآن، هل أحتاج أكثر من شهر حتى تغفري لي ما لم أفعله، ربما، بل بالتأكيد فنحن في الشهر الثاني، تحديدًا أكملنا واحدًا وأربعين يومًا حتى هذه اللحظة.

- بابا، سألتك كم عمري ما تسمع؟

- سمعتك حبيبتي بس مشغول بالطريق، باقي عشرين يوم ويصير عمرك خمس سنوات، صرتي عروسة.

ولا أعلم أهي ابتسمت بخجل أو أنها تجاهلت بقية حديثي لأنها ارتبطت باللعبة من جديد.

هذه ليست رسالة، هو نص سرقته من مكان ما، وأعلم أنه لك ولكني أرغب في أن أنسبه ليّ.

رائحتي تصبغ أصابعك.

أول دروس الانشطار: أنا عودُ ثقاب، عالمي عُلبة كبريت، مُشتعل حتى الخصر، عاري الساق أشبه الإنسان إلا أنني مسلوب القرار. عنّي باحتضار: منذ الشتاء الأول، مرورًا برحلة البحث عن الدفء والضياء، تخلقت كشرارة انطلاق، وتكاثرت بلقاح الاشتياق، وانقرضت تحت وطأة السخط ودوامة الاحتراق. ثاني أوكسيد الاختناق: دُخاني مؤذ وضار، رغم أنك تشعر أني صغير وهش وتافه، وتهملني بجوار الموقد الكهربائي، وتنساني في أرشيف الذاكرة مع أشيائك البالية، تخبئني مع ذكرياتك القديمة المكتظة بالحنين، ورسائلك العتيقة المغلفة بالشجن، ومعاطفك المهترئة الفارغة من توغل يديك، تضعني في خزانة ملابسك تحت قميص طفولتك وجوارب شقاوتك، تعبر الجملة المتجمدة على وجهي « قديمك نديمك» ببلادة، وتغفل ـ مُجددًا ـ إنيّ عودُ ثقاب ويمكنني أن أشتعل. ثالث متاهات الغياب: خط البلادة، خط الذهاب بلا رجعة، خط تسكعك من منزلك إلى مدرستك، خط بحثك عن توأم قلبك، خط ضياعك بين أرصفة شتاتك، خط

غربتك بين أهلك، خط حلمك حتى صفعة وهمك، خط أناملك في مواطن ضعفك، خط عثراتك في نُدب خدك، خط سكونك أمام تحديات عجزك، خط مغفرتك بمحراب توسلاتك، خط صدقك البائن في أطياف كذبك، خط حيرتك بينما تنبش عن رزقك، خط ذوقك بُرهة دوزنة مزاجك، خط بياضك متواريًا خلف عبث ألوان جنونك، خط اللعبة إما أن تكون دُمية أو احتمال أنك ذو قيمة، خط رحيلك وأنت تبتعد وتعترف- مُؤخرًا- أن الخطوط خدعة. رابع جروح الانكسار: أنثني وقت غضبك من ولّاعة سجائرك، أخدمك وقت حاجتك لإشعال شمعة عيد ميلادك بجوار طليقة صديقك، رفيقك في وحشة ظلامك وأنت تغنّي: أنا صوت الحزن الذي هزّ أغصان الشجر، فتساقط منها الشجن. أنا الرقصة الساذجة لعرج واضح بنصف قدم، وحيدٌ مثل العدم، سأم. وتسقط قطرة دمع تصعق بقايا اشتعالك، وأنطفئ. خامس محطات الوداع: حقيبة سفرك موبوءة وتطالعك بعدد مرات تنقلك، لا أرض تخصك ولا سماء تسعك، لا توقن بوترك حتى يترجم غموضك، وأنا، وأنا أراقبك مُستلقيًا في بقعة انسكاب فائض قهوتك، ياه كم كُنتَ حزينًا لحظة انتظارك، كم كُنت أنا غريبًا لحظة جفائك ومغادرتك. سادس حكايات الإياب: حتى تبدو الأمور منضبطة بفوضوية لعلنا نتخيل معًا لو حدثت موجة سخط عامة، بداية من تجاهل إشارات المرور ومواعيد الرحلات والمناسبات الاجتماعية وتسديد الفواتير وساعات الدوام الرسمي وتهديدات أمن الدولة للخارجين عن القانون وطوابير الانتظام في البنوك والدوائر الحكومية ومطاعم الوجبات السريعة وشباك تذاكر السينما وقوانين القبيلة والعادات والتقاليد والحنق من ذات

الظروف وتكرار تدوير المشكلات والتخلي عن المطالبة بمقومات الحياة في هجرة نائية ومتممات الرفاهية في التجمعات المدنية وتكذيب الأخبار ووكالات الأنباء وتحقيقات المنظمات وإعلانات المنتجات التجارية، وبعد: سننعم بعالم مُختلف. كان هذا المكتوب سيصل ولكن ـ وحدي ـ تمردت واشتعلت فيه فأحترق. الآن لديكم ما تحيون من أجله، استمروا في حياتكم قبل أن تنتابكم لعنة الفراغ وموجة التمرد. سابع مرات خطيئتك: لديك مبرر وعذر لكل اختياراتك، فخيانتك انتقام من جفاف أنثاك وقتما داهمتك نوبة شبقك، وتحدث نفسك أن لكل فعل مُبرر يخصك ودفعك لفعلتك. ومضيت تُحرّف كل تجاوزاتك، وتحرق كل حزنك في جوفك ويعلو دخانك، يتمادى غبار فضيحتك فتدسّ جسدك وتموت مغبونًا، أنت من اختصر حياته بالاحتراق، كُنت سيجارة ثم كبرت وصرت «مُعسّل» وحين بلغت ذروة كبتك تشكّلت في «شيشة» ولا تنفك تزفر أنفاسك وتلعنني كلما تذكرت أنيّ من أشعلك أول مرة. أوه كُل الحياة هي المرة الأولى، المرة الأولى فقط. ثامن سماوات صراخك: اتشوا، وتعطس بصوت مرتفع، ويتدافع رذاذك يبللني ولا أغرق. تاسع أرقام حظك: أنا شيء صغير وهشّ وتافه، ولكن رائحتي تصبغ أصابعك رغمًا عنك، هه.

«مي»، وأضع اسمي في نهايته لأنه صار يخصني، فرائحتك تصبغ أصابعي.

رسالة: 135، عندما يموت عصفور يفقد العالم لحنًا.

ضجرت بأن أبقى تابعًا لكِ، هذه المرة أنا من سيبادر بالكتابة، وهذه ليست رسالة، هي: الفصل الثا..بت!

ولم ننجح في كتابة رواية جيدة، حاولنا أن نفعل ذلك وفشلنا، أخبرتك سابقًا أن الأمر يحتاج المزيد من المثابرة ولكنك تعاندين! أنا يا «مي» لا أجيد هذا النوع الكتابي، أو بشكل أدق أجهل كيف تتخلق رواية مذهلة، أجهل كل شيء يتعلق بالكتابة، ولكنك أردتِ أن أكون معك. تقولين: إنك في روايتك الأولى وجدتِ ردود فعل رائعة وقراءات مميزة، وفي الوقت ذاته تألمتِ لأنك صنعتِ عوالم واسعة بمفردك. هل يكون الكاتب مادة تنصهر لتمنح المهتمين تمثالًا مختلفًا؟ إن كان كذلك فهو ضحية فقط. الكتابة هي المتعة، هي لذة الانغماس في أعماق الفكرة وتحويرها، هي إعادة صنع أشياء معتادة بطريقة خلابة لتكون إنتاجًا جديدًا يجعلنا نتذوق الحياة حسب رغبة مزاجنا المعقد. وهذا ما لا أجيده، أفهمه وأعجز عن فعله، أستطيع أن أخبرك كيف تنسجين فتنتك في نصك، ولا أستطيع أن أحيك ولو جملة متزنة، أنا ببساطة أتقن فن تنظيم المسارات دون أن أمضي في

الطرقات، كأني إشارة مرور ضرورية وبليدة في السير! هكذا أنا كما لا تدركين، لذلك لا يضايقني هذا الفشل الذي وصلنا إليه، هي تجربة كانت ستؤتي ثمارها لو حدثت برفقة غيري. الآن يكفي أن أضيف أن الكتابة لا تناسبني. لعلك ترغبين في معرفة ما يناسبني، لا أعلم عما يكون تخصصي الملائم في الحياة، ما أجزم به أن الجنون هو وظيفتي وما عداه لا يتقاطع معي ولا يشغلني. أقترح عليك الآن أن تعيدي ترتيب أوراقك وتبدئي في مكان آخر برفقة شخص آخر ليس أنا بالتأكيد، ولا يزعجني أن أقدم لك النصائح التي تمنحك عملًا مدهشًا، قلت مدهشًا وليس بالضرورة أن تكون كل الأشياء المدهشة جميلة! أقترح أيضًا أن تعيشي حياتك بلا وجع التفكير وتدوينه، الوقت لا يتسع لكل هذه الهرطقة، بالمناسبة كلمة هرطقة لا أفهمها ولكن أضمنها في كلامي كي أبدو أمامك مهتمًا بالثقافة، ثقافة الخياطين التي تجعل أحدهم يصرّ على اللون الأبيض في كل ثوب يصنعه لأنه يلتزم بالنسق التقليدي وينجح، ويأتي آخر يهتم بكل الألوان فيقدم لباسًا عصريًا جذابًا ورائجًا، الكل ينجح حين يشغله أمر الجودة ويتقن صنعته، تأكدي من ذلك لحظة متابعة عروض الأزياء، أنتِ بالتأكيد تهتمين بهذا الأمر، ألستِ أنثى! فقط بقي أن أخبرك أن الرسائل التي تبادلناها كانت مبتورة، طغى عليها الغموض، وأتذكر أنك طلبت أن نتعرف على بعضنا من خلال رسائلنا ولكن لم يفلح الأمر، كل ما حدث أنني زدت بك جهلًا .

«ماجد».

إذن هذه الرسالة هي: الفصل المتهالك!

تعبث بعقلي، تمرّر كلماتك بسلاسة فتزعزع يقيني، لذلك أنا أنسحب وأقصّ لساني. سأكمل بقية حياتي بلا حديث، سأنذر روحي للصمت، وحين يريد العالم أن يقول حكايته الجامدة سأكون الصورة، سيتمّ عرضي في صالات السينما بتذاكر دخول مجانية، سيكتب السفهاء عن عقاب الله لي، سيؤولون ما يصيبني بأنه انتقام الرب بسخريتي، سيجزمون أن عدالة الإله تمارس نفوذها، ويتناسون أن العدل البشري الذي ندّعيه هو ظلم بطريقة ما! العدل الذي يطال بسطاء وكادحي العالم ويختفي في حضرة الكبار، لأن الكبار بكل وقاحة فوق كل شيء، ويميعون القوانين في صالحهم، القوانين في الأصل هي للعامة فقط، الكبار وحدهم يعشقون التمرد، لذلك لا بدّ من التجاوز ليتمّ إشباع الرغبة في التمادي. أن تكون الأسد وسيد الغابة فأنت تثبت أنك حيوان، وتنظر للجميع بأنهم على شاكلتك، المضحك جدًا أن نظرتك تمثّلك ولا تأطرهم. فلا تغضب حين يشتمك أحدهم وينتصر لإنسانيته، سيبقى في الحياة عظماء حقيقيون يعتزّون بكرامتهم وليسوا من صنع الإعلام أو المنصب أو المال أو السفهاء، السفهاء هنا لا يشبهون أي سفهاء آخرين، لأنهم بكل حماقة هم

تابعون لسفيه كبير يسمونه قدوة. قدوات وشيوخ وقديسين وبسطاء وكادحين، هكذا يريدون أن يقسموا المجتمع. ويرغبون في تضليلهم بزرع الشك في قلوبهم، فيخبرونك مرة أنك مواطن صالح ثم تصير إرهابيًا وتتطور لتكون رجل الأمن الأول، ثم يصفعونك بأنك مجرد حشرة حقيرة تقضي كل وقتها في جمع قوتها. اصمت ولا تكابر على ضعفك، طأطئ رأسك وانحنِ لتؤدي تحية العلم، ولا تنسَ أن تقبّل تراب أرضك، لا شيء يستحق عرق جبينك ونزفك إلا قبرك، فابحث عن تابوتك في هذا العالم وابكِ عليه حتى يأتيك موتك، وسيقول السفهاء إنك هزيل وعار على البشرية، لا ترد عليهم، لا تخبرهم بأنهم خونة، لا تيقظ ضمائرهم المغيبة تمامًا، لا تفعل شيئًا سخيفاً يجعلك عظيما، والآن ارفع سبابة تشهدك وأمضِ في قول: آص بكل اتجاه ومت بطلًا. سيبصق الجميع بعد رحيلك، كان مشهدًا تراجيديًا مملًا، فلم تتقن تمثيل دورك وخسرت فرصتك. ليصفق الجميع، لتصفق أنت وترقص، لتخبرني بأني كتبت شيئًا مختلفًا، وحين تفعل سأشتمك وأصفك بالسفه وربما أضفت كلمة قذرة لأنك لا تفهم. ما تتصفحه الآن سخط إنساني على وضعه في الحياة، رفض لأن تبقى دومًا في الهامش، في حاشية الحدث، خارج حدود اللقطة، بعيدًا عن الصراع والتحدي، قريبًا من الكماليات، قزمًا في طابور المناضلين والمحسوبين على الوجود، أنا وحدي لا تحظى بأية اهتمام، وأنت وحدك من أغلق آخر نافذة حضور، تعاملت مع رسائلي بطريقة فظة، كنت تريد أن تخبر الجميع أن إحداهن تهتم لك، أن سخيفة تخلّت عن عقلها ولاحقت جنونها وباتت تطوف بعالمك وتناضل كي تدخل فيك،

وكلما أظهرت المزيد من رغبتي في أن أكون معك زادت حاجتك لتلهو باندفاعي، صبرت عليك ولم أطق مسايرتك، أعتقني من هوسك بأهميتك، وامسح كل الرسائل، أو لا تفعل ودعها تشي بغبائي وحماقتك، ولن أعود لطرق بابك ثانية، وإن فعلت فلا ترحّب بي، فقد انتهت المغامرة .

«مي»

الساعة الثانية عشرة مساء:

طفشت يا بابا، بنام اسمحلي بخليك لوحدك بس لا تخاف أنا جنبك.

- أظن هذي الجملة يا كندة سمعتها من قبل، من وين سرقتِها؟

- ماما كانت تقولها. بابا: أبغا تجي ماما وتسكن معانا.

- بتجي مع خالو عشان السيارة ما تكفي، وأضفت حتى أخفي كذبتي: ولو جت معانا بتكونين قعدتي هناك، وأشرت بيدي للخلف.

أظن أن كندة شعرت بالزهو ونامت، وقلت في نفسي: واحد طنش، اثنين طنش، ثلاثة طنش. وتسرد قصة الفشل وتسخطُ، وتنبت الأوهام شوكًا فتخشى المسير، تبكي على جرح لا يليق به البكاء ويكفيه الضماد، تلتف حول عينيك عصابة الحزن وتبحث عن ضياء، تفتح العينين علّك تُبصر الثقب المنير وتنهش بأصابعك المنافذ، وتعود تنخر عظمك الرخو وتسقطُ، لا تلعبْ دور المحقق وتجعل الحظ مُجرم، لا تنسَ أن خلف كل باب مُغلق فرح ينام. اصرخ، وافتح ذراعيك على اتساع الكون، وقل:

أنا ابن الحياة، والحظ يأتي من جديد. ولم يأتِ الحظ فرحت أفكر أن في الحياة فصين: رجل وأنثى. الرجل هو المنطق، الأنثى هي العاطفة. الرجل هو الجزء الأيسر من العقل، الأنثى هي الجزء الأيمن. الرجل هو تجسيد القلب، الأنثى هي النبض. الرجل هو الحروف المبعثرة، الأنثى هي الكلمة. الرجل هو صوت الحياة، الأنثى هي النغم. الرجل سماء، الأنثى غيمة. الرجل الرصيف المُمتد، الأنثى خطوات الانتظار. الرجل المواعيد المُتأخرة، الأنثى عقارب. الرجل الرغبة الصامتة، الأنثى الخيانة المدوية. الرجل حماقة الأشياء الجميلة، الأنثى جمال الأشياء القبيحة. الرجل أسطورة التاريخ، الأنثى هي من كتبتها. الرجل مغامرة تستحق التعب، الأنثى تعب يستحق المغامرة. الرجل صديقي وأنا، الأنثى حياتي وأنتِ. رفعت قارورة الماء وخطر ببالي هذا العبث. هو: خلف كل خطيئة أنثى. هي: آدم يبحث عن مُبرر لكل سيئاته. أنا: أتذوق تفاحة الجنة. هو: الحياةُ تأخذ الضرائب بعد كل متعة. هي: أكبر صفعة أن ترتبط حياتي برجل أحمق. أنا: على شباك التذاكر أرتّب أقدار الخائبين. هو: حين يعمّ الهدوء أعلم أن زوجتي بعيدة. هي: أتناول الكثير من المُسكنات بعد كل نقاش مع زوجي. أنا: أقارن بين دعوات الزواج وقضايا الطلاق المُعلقة في المحاكم. هو: يبعث برسالة إلى مكتب تزويج المسيار من جوال أحد أصدقائه. هي: رفضت كل الخيارات الجميلة في الماضي والآن تحدّث الخاطبة عن رغبتها في نصف رجل. أنا: أضع لافتة على عمود النور في الشارع المجاور عليها رقم مأذون شرعي. هو: يتوهم أن المنصب الذي يشغله يستحقهُ وكل ما في الأمر أنه أخذه وراثة عن أبيه عن

خاله. هي: تُعلّق فشلها على الحسد والسحر وباتت المعوذات لا تجدي في طرد الشياطين. أنا: أنفث من ريقي المبارك في قوارير ماء تحّولت إلى مباركة أيضًا من أجل الباحثين عن البركة والصحة. ثم شربت الماء وأنا أقول: كيف لهذا الطريق أن يسلبني عقلي وأصير مجنونًا.

رسالة: 136، راحة كفي عُش، تنفر منه العصافير!

هذا: الفصل الفاضح!

فيما مضى مارست وظيفة الجمارك، كل الرسائل كانت تعبر من خلالي وأتصفحها، وحين أرغب في التعديل كنت أفعل دون أن ينتبه لذلك أحد. المثير للشفقة أنهم اتخذوا في سيرهم خطين متوازيين متقاربين «مي وماجد»، الذي يغيب عنهم أن كل ما وصل إليهم كان محرفًا. حتى أوضح الأمر سأطلعكم ببعض الحقائق. في البداية نحن أربعة أصدقاء، نسكن شقة عزوبية ونلعب البلوت طيلة الوقت، حتى أخبرنا خالد برسالة وصلته بالخطأ من أنثى، كلنا صرنا نصرخ: أنثى، يعني بنت، قل والله، طيب رديت؟ قال خالد: لا، الرسالة جتني بالغلط. بالغلط بالصح بأي حاجة المهم فيه بنت، تعال نرد عليها، وهجرنا البلوت، فجأة طرأ على بالي فكرة أن أحّول الرسالة لشخص آخر، وتخيلت كيف ستصير الحكاية حين نتواصل مع شخص خاطئ عن طريق شخص خاطئ. ابتسمت لهذا العبث الذي سينتج عن توزيع الرسائل بطريقة عشوائية، غيّرت محتوى الرسالة بمساعدة الشياطين الثلاثة أصدقاء البلوت، وبعثتها إلى

صديق لنا مغرم بالرسائل اسمه ماجد، وقررت أن يصبح هذا الخطأ متكررًا ولكن حسب تخطيطي، كُنا نرغب في «خرفنة» ماجد، وحين بعث ماجد برسالة ردّ كان من الضروري أن تمرّ عليّ أيضًا وفعلت ما يلزم ـ حّورتها ببساطة بما يزيد الأمور تعقيدا وغموضا ـ وبعدها أرسلتها لـ «مي»، وصارت «مي» ترسل على بريدي لأعدل وأرسل لماجد، والعكس يحدث وكبرت الحكاية، وصار كل شغلنا مراقبة ما يحدث، في ثاني رسالة وضع ماجد رقم هاتفه ومسحته، في إحدى الرسائل أرفق صورة، هذه الصورة حفظتها حتى نسخر من ماجد حينما يحين موعد كشف اللعبة، ثم خطر ببالي وللحقيقة هي فكرة أحد الأصدقاء الذي أتعمّد أن أخفي اسمه حتى أقهره وأقترح أن ننشر الرسائل في مواقع الانترنت لنحصل على المزيد من الضجيج وحدث ذلك، وإلى الآن ضميري لم يستيقظ بعد ولكن أردت أن أكشف الأمر لـ «مي» وبعدها ستكون قمة النشوة حين نستضيف «ماجد» في الشقة ونخبره الحقيقة، يا الله كم أشعر باللذة .

«باسل»

الفَصل!

أكثر ما يُشعر بالألم أن تفتح قلبك لمن ينوي أن يحشو بداخلك غصّة. أزحت الستائر عن غموضي وتركتك تسكن بجواري، منحتك فرصة هتك ستري بتسلّلك لأوردتي، كنت تغفو في كنف حناني، وحين مرّت الشياطين بقربك طاردتهم، وكنت أتوعد الكوابيس بأن أمزقهم لو فكروا في الحضور في نومك، أردت أن أزرع في صدرك أنثى لا تتكرر، ولكن فعلت أنت ذلك؛ غمست تفاصيلك في عقلي، علّمتني كيف يقتل الرجل من كلمة. قرأت كلماتك في رسالتك الأخيرة، الرسالة التي عنونتها بالفصل الفاضح، كي تراوغ في حديثك، وتقول أنك لست الفاعل. أضحكتني بفعلتك، بوضع حبكة توهم الجميع بأن كل هذه الرسائل كانت مزورة، وأن التحريف كان يعبث بالحكاية، أعترف بأن الفكرة جنونية، وبعثرة الرسائل بطريقة عشوائية أمر أكثر فوضوية ويروقني، ولكن ليست الحقيقة. هل صدّقك الجميع؟ أنا أكشف حقيقتك، وأجبرك على مراجعة تصرفاتك، الأهم كيف ارتضيت لنفسك أن تعاملني هكذا وكأني تحفة بيدك تقرّر أين أكون، تختار حسب مزاجك متى أحضر وكيف تغيبني، تذكرت عاملة منزلنا حين نتلو عليها نصائح الدخول والخروج واللباس،

جعلتني أعيش كل البؤس الذي سمعت عنه، كل الوجع الذي أطعمته لمن حولي دون قصد مني، تجرعت ضعفي وبكيت، علمت أن صوتي لا يتجاوز سقف غرفتي، وأن خطواتي مرهونة بتحكم أصابعك، تشير أن أقفز فأقفز، ترغب في أن أترنّح فأسقط، أردت أن أتلاشى فطعنت قلبي ولم أنزف، لم يبقَ في ورقتك مساحة لموتي، منعت روحي من نهاية تليق بأنثى مختلفة، من خاتمة مدهشة يموت فيها الجميع، تجعل المتابعين ينشجون وهم يراقبون آخر لحظة في النص، تمنيت مسافة من الحيرة تسكن عقول العابرين، وسؤالًا مزعجًا يتردد في صدى الغياب: كيف نموت قبل أن نقول ما نريد؟ كيف نموت دون أن نفعل شيئًا البتة؟ لا أقدر على العتب، فقط أرغب في قول إن السفهاء الذين أخبرتك عنهم ويتكاثرون في بلدي هم أنا وأنت، كل من يرضى بأن يكون سطحيًا وفارغًا، كل من يستسلم لسطوة الجهل والتخلف، كل من يرضى بأن يكون تابعًا في طابور الحياة وهو يملك أن يكون طابورًا بمفرده، كل من يمنح عمره لخدمة غيره دون معرفة بجوهر وجوده، كل من يبحث عن الحضور في الزمن الذي فرض قانون: اخضع لتحظى بالمرور. أعجبني اسمك الجديد يا باسل ويا ماجد ويا خالد ويا كل الرجال، ولا سلام.

الرسالة الأخيرة: «مي»

الساعة الواحدة وخمس دقائق مساء: في مدخل الرياض توقفت عند أول مسجد لأداء الصلاة، ثم تذكرت أن هذه المدينة لا تعرفني وخفت أن أترك كندة نائمة في السيارة، فقررت أن أجمع الصلاة مع العصر حينما نصل للفندق، ولأنه صار قريبًا، أظنه بعد ثاني إشارة على اليمين، إن لم يمل هو أيضًا من مكانه ويهرب، كما هربت زوجتي، هي تحديدًا لم تهرب بل تركتنا بعد أن صرخت بوجهها وكانت المرة الأولى، لم تكن هي المذنبة ولكني مكبوت ومنزعج من النقل من الطائف إلى الرياض ومجبر عليه، المؤلم أن كندة كانت حاضرة وتبكي بينما يرتفع صراخي وزوجتي متجمدة، ثم عدت للوعي، انسحبت زوجتي بهدوء إلى غرفتها، بقيت شاردًا وقلبي يعتصر داخلي، ضممت كندة ورحت أعتذر لها. بعد نصف ساعة خرجت زوجتي من غرفتها بيدها حقيبة سفر صغيرة، وتركت لي ولكندة جملة واحدة: ربما لا أعود، أبي ينتظرني بالخارج، كونوا بخير. ما يبعث على الطمأنينة الآن أنني ليلة السفر مررت بمنزل أهل زوجتي للسلام، وعند العاشرة بينما كنت أستعد للخروج همست لعمي: ألن تأتي زوجتي معنا؟

- أخوها سيسافر بعد أسبوع وقالت إنها ستأتي معه ولا تريد

أن يخبرك أحد، وأظن أنها وشوشت لكندة بذلك.

امتننت لعمي وأخبرته أنني لن أعلم، وسافرنا. ولم تخبرني كندة عن نية زوجتي، تأخذ كل شيء على محمل الجد هذه الصغيرة، وأحبها.

رسالة: 137، أنا عصفور لم يتعلم الطيران بعد.

حرفي دخان روحي، لا أكتَرث بمن يتَنفسه بعدي. في الحقيقة أنا اكترث! ولأني سيئ ومنفي، يلازمني شعور بأن حضوري كان في التوقيت غير المناسب، في التوقيت الذي يحتوي الناجحين في الحياة فقط، الفاشلون بشدةّ مثلي كان يلفظهم الزمن خارج أوقاته. لم أسخط على أحد بالمناسبة، تفهمت رفض الوجود وجودي، وانزويت في مراقبة الكائنات، نذرت نفسي لمتابعة الإنسان، وتطورت قليلًا فركّزت على أجزائه كلّ على حدة، فكنت أخرج من غرفتي الصغيرة لتدوين مشاهداتي بعد تحديد الجزء الذي سيكون تحت مراقبتي. ذات مرة ركّزت على الأقدام: كنت أصنفها حسب تناسق الأصابع والحجم، الأصابع التي تلتصق بالقدم تمامًا هي لمخلوق متردد، الأصابع التي تطول خارجة من القدم تشي بإنسان متهور، وحصرت الناس في قراراتهم بين التهور والتردد. في مرة لاحقة تابعت الرؤوس: الجبهة الواسعة بعينين غائرتين وشفاه بارزة هي لإنسان مكتئب ورديء الحظ، الجبهة الصغيرة بعينين جاحظتين وأنف معوج وذقن دائري تعني إنسانًا طموحًا ويحصد نجاحات

محدودة ولكنه غير اجتماعي، العينان المتقاربتان بعظمة أنف صغيرة وأذان تلتصق بالرأس هي لكائن مثابر ويعاني من اضطراب في الأكل ويجيد مهارة الإقناع، ودوّنت لحظتها الناس في اختياراتهم بين: محظوظ وطموح ومثابر. في آخر تجربة تأملت النصف الأيمن من الإنسان: الذين يميلون بأجسادهم حين يسيرون إلى الأمام حالمين، الذين ينتصبون واقفين باتزان في خطواتهم مرهفين، الذين يترنحون يشعرون بأنهم يلفتون الانتباه هم سلبيون وعاجزون. وأضفت حينها أن الإنسان يخشى دومًا من فقدان هيبته. منذ لحظتي تلك لم يعد بمقدوري رؤية إنسان غير مركب، كنت سأمضي في تدوين مشاهداتي حتى حدث أمر غيّر مسار حياتي تمامًا، غيّر قناعتي بوجودي في الوجود. فبعد أن اعتدت مؤخرًا على الاسترخاء في المقهى - هذا المقهى بالمناسبة يكرهني ولكن أتلذذ بالمكوث فيه رغمًا عن كبريائه - وفي لحظة هدوء داهمتني بغتة، لمحتها، ظلت تراقبني من بعيد فانجذبت إليها، سرت دون وعي بخطواتي، وقتها صنّفت نفسي بأني متهور ومحظوظ وأجد أهمية كبيرة - قلت سابقًا لا أستطيع أن انفكّ من رؤية المخلوقات على أنها مركبات متداخلة، أو أقول ذلك الآن - كلما اقتربت منها تلعثمت خطواتي، بدأت تكبر وتحيط بي - لم تكن بيضاء جدًّا - إنما فاتنة ومغرية، بحثت عن أثر عابر عليها فما وجدت، علمت حينها أنيّ أول من سيقع عليها، الغريب أنني سمعت صوتًا ينادي باسمي: فضّ بكارتها وعلقّ نطفتك في رحمها. راوغتني حين سلمتني جسدها، أظهرت بعض خجلها فحرضتني على السيطرة على كل تفاصيلها، ارتعشت أكثر من مرة، وارتعدت

لحظة صفق الجمهور لي، لم أتوقع فضيحة كهذه، سرعان ما لملمت جسدي وهربت إلى غرفتي. في اليوم التالي سرت شائعة في المدينة أن الرجل المجنون تحوّل إلى كاتب روائي، وكتب البارحة أول نصوصه في المقهى واغتصب ورقة. بعدها بذرت كلمات كثيرة في أوراقي ولم تنبت، الآن أعترف بأني كاتب عقيم، وأعتذر منك يا «مي» على كل شيء. أعتذر عن رسالتي السابقة فهي مجرد مشاغبة، واغفري لي. إنه الشهر الثالث منذ آخر رسالة، أبحث في بريدي عن أثر عبور ويكسرني الغياب، رائحة المكان لا توحي بأنفاسكِ، فوضاها لم تعد تؤذيني، أريدكِ، أبحث عن كل ما يشي بكِ، يرعبني أن أصدق أنكِ غادرتِ عالمي، بل أرفض أن أعترف بأنكِ غادرتني. أنتِ غدرت بي، هكذا أفسّر تصرفكِ، جعلتِني أقف على حافة عالم الأنثى، تحايلت عليكِ كي تغلقي نافذتكِ، أظهرت الكبرياء فتجاوزته دون أن تتنازلي، قسوت في تعاملي فلم تحرميني لطفك، قلتِ في أول رسالة على بريدي: دعنا نتخيل أننا أصدقاء، أو أكثر من ذلك ونتبادل الرسائل، ولأننا غرباء سنتقن التجربة، وسيتشكل لدينا رواية، لن تلاحظ كيف تجاوزنا الصفحات الأولى وبات البحث عن النهاية هو ما يشغلنا، لا تكن أنانيًّا وتنسبها لك وحدك. سنكون معًا، جيد أني تذكرت أمر الثقة: أنا لا أثق بالرجال كثيرًا، لا تغضب من شكوكي، هذا العالم الشاسع غابة فضائح، كل شيء جائز في نظام الفوضى، أنا أعرفك من الانترنت فقط، والانترنت دبوس يخترق الحجب، ويتوغل في أعماق خصوصياتنا ويكشفها، لا شيء يبقى طي الكتمان، إنه عالم الرعب الناعم، لن يرفضه إلا من يوجعه،

ولن يتخلى عنه إلا من يتذوق خداعه. لا تهتم فهو عالم جميل أيضًا يمنحك فرص عديدة لا تتخيلها، أقلها أن نتواصل معًا دون أن يخدش هذا التواصل سمعة أحدنا. المهم أن تمنحني كل الثقة حتى أطمئن لك. إن كنت توافق على العرض أخبرني وأنا في انتظارك، لا تنسَ: الانتظار ورطة.

إنها التجربة إذن، ألم تقل: ولأننا غرباء سنتقن التجربة. هل توصلت في نتائجها أني تجربة خاطئة؟ ألا أستحق أن أرفض أن أكون تحت رحمة الاختبار؟ أن أخبرها أن كل ما يحدث هو حياة ولا نكف عن تزويره، وأن هوسنا بتورية الحقائق لا يجعل الحقائق مختلفة، وأن قلبي كما أعتقد هو ملكي، هو من خصوصياتي ولا يحق لأحد أن يتخيله منفضة سجائر أو صندوق بريد أو عش عصافير! هو قلبي الذي يستحق أن أحميه، أن أحافظ على وقاره دون أن أزجّ به في خيارات أن تُقبل أو تلفظ. اللعنة على الوحدة، على حاجتنا ليد تربّت على كتفنا، وحضن يأوي تشردنا، وصوت يعوّض تلعثمنا، وإنسان نتوهم أنه سيفتقدنا. مريض أنا بالاحتياج، أشعر أن العالم سيتوقف بعد موتي، وأنه سينتحب طويلًا لفراقي، أن كل من يعرفني سيبكي بطريقة بشعة عند تشييعي، وأن كل الأماكن التي تواجدت فيها سابقًا ستحن لي، وأن أشيائي ستنبت لها جناحين وتتعلق بالسماء، وأن أصدقائي سيكتبون عني كلامًا مدهشًا وشجيًا، وأن مواقع الانترنت الفاضحة كما تسميها «مي» ستعلّق ذكرياتي في سقف بواباتها، ولن يكف الجميع عن مناداتي في أوقات متفرقة ثم ينتبهون أنني رحلت ويبكون طويلًا. لا أطيق التفكير في الوجع الذي سيحل بالعالم من بعدي، سينهار بالتأكيد! أعلم

أنني أهذي، وأن العالم لن يكترث لغيابي، لذلك أنا الآن أتجاهل قيمة حضوري. أعبث بلحظاتي كأنها لا تعنيني، أمزقها بالكتابة وأنا لا أجيدها، أو أجيدها وتخذلني، حتى اللحظة لم تمنحني وظيفة، وظيفة لائقة برجل مُهمَل، يستحق أن يحصل على مرتّب شهري، ليحصل على أقلام جديدة وأوراق فاخرة، ويكتب أن الحياة جميلة، هو يكتب وأنا أتلاشى حينها. أبحث عن المقهى الذي شهد وقعتي على ورقة تشبه أنثى، وأرتشف فنجان قهوة. فقط أفتح ذاكرتي على طاولتي وأجد «مي»، وطيف أنثى جاءت بعد «مي»، وأنثى تودّ أن تأتي، وأنثى لن تأتي وسأظل أترقبها. أفتقد «مي»، وأنثى كانت ستأتي وخشيت أن يخالطها فيّ أخرى، وأنثى تشبه ورقة بيضاء مسطرة، هذه الأنثى المسطرة أتوقع أن تعلمني كيف أتخطى الحدود دون أن أصطدم بالحواجز. أتوقع ذلك ولا أراهن عليه، فبعد «مي» أشك في قدراتي، أشك في ذاكرتي الضئيلة بمساحة أنثى واحدة، أنثى قادمة، أنثى غاربة، أنثى هاربة، أنثى حقيرة، أنثى مختلفة.. يا لذاكرتي المؤنثة. هل تظن ذاكرتي أن حضور الرجال هو اغتصاب لها؟ ربمّا. الرجال يحضرون في كريات دمائنا وجزيئات جسدنا، وفي القلب تأتي الأنثى وتسيطر على الذاكرة الضئيلة ـ الذاكرة التي تتلون بالسواد، التي تأتي بحجم الكبريت الذي يتكور فوق عود الثقاب، عود الثقاب الذي يشبهني تمامًا، يشبهني وأرفض أن تصبغ رائحتي يد أحد ما، أريد أن تفوح رائحة أنثى في كل عالمي. حتى أتنفسها وأنا ألثمها، وأثق بأنها تخصني وحدي، أثق فيها وأنا من غدرت به أنثى عابرة تسمي نفسها «مي»، ألقت عليّ كلمتين: الانتظار ورطة. وترنّحت في مكاني قبل أن أسقط

على وجه خيبتي وأنا أردد: الانتظار وحده ليس مفاجأة. فيومًا كان غيرنا ينتظر لحظة ميلادنا، ثم انتقلت إلينا مهمة الانتظار؛ ننتظر أن نكبر، وننتظر متى نفرح، وننتظر أوقات الرسوم المتحركة ومواقيت الترفيه، ننتظر من سيتقاطع معنا فيكون رفيق دربنا، ننتظر من يخذلنا ليتسنى لنا أن نحذره بقية عمرنا، ننتظر صفعة الوجع الأولى لنجرب الألم، ننتظر حصولنا على غرفة تخصنا وسرير يتسع لوحدتنا، ننتظر أن نرتكب أول خطيئة ونستغفر كثيرًا، ننتظر أن نرتكب المزيد من الخطايا ويتضاءل بياضنا، ننتظر أن نقع في الحب وحين نسقط ننتظر كيف سنقع في المرة القادمة، ننتظر أن نحصل على شهادة تؤهلنا لوظيفة مملّة، ننتظر الراتب لنترقب بعده كم سيبقى منه، ننتظر الأسرة التي نحلم بأن نصنعها، ننتظر أن يكبر أطفالنا وينتظرون أيضًا كل شيء يحدث لهم، ننتظر أن نموت، ونموت. هو الانتظار الذي نمارسه طيلة الوقت، وما عداه يكون مفاجأة. الحقيقة التي أعترف بها الآن أنني أكره المفاجآت، هي تحمل معها تفاصيل جديدة وتشوش هدوئي، لذلك المستقبل يكون مرهقًا لأنه مفاجأة، ونحِنّ للماضي بصفته مادة جامدة، بصفته فيلم تسجيل قديم نطالعه كل مرة لنثبت أننا نتذكر كل شيء حدث ونتوق إليه، تحفة أثرية لا ننفك من الاعتناء بها ومنحها مكانًا بارزًا في حياتنا حتى يكاد أن يكون ماضينا حاضرنا. رغمًا عن كل ذلك فالحياة هي اللحظة، هي مباراة كرة قدم كما تقول «مي». مباراة غير قابلة للتوقعات، ومهيأة لكل المفاجآت، ممتعة ومرهقة، مهما كانت الاحتمالات فإن ما يحدث دائمًا هو احتمال جديد، هو مفاجأة. كنت سأحقق نجاحًا لو امتهنت كرة القدم، كان هذا

أفضل لو تهيأت ظروف مناسبة، الظروف التي تحميك من خيانات الآخرين، تمنحك فرصة أن تنعم بحياتك دون أن ينغّصها عليك أحد، دون أن تتحول كل لحظاتك إلى سلسلة هروب، تهرب من الشتائم والضرب والتحرش والذلّ، تهرب من كل الظلم الذي سيلحق بك لمجرد أنك ترغب في أن تكون لاعب كرة قدم، لاعب كرة قدم تُحصى عدد سنوات عمره على أصابع اليدين، لا يعرف معنى الكروت الصفراء والحمراء، ولكنه يفهم كيف يؤذيك أحدهم ولا يحصل على طرد من الحياة، لا يعاقب الذين يعذبون طفولتنا، ويجزون براءتنا بخدشنا في كرامتنا، ولا أحد ينصفنا، حتى عدالة الحياة لم تكن حاضرة حينها، ربما أرادت منا أن نتعلم أن العمر تحدٍّ، وأن الصدمة تهيّئنا لتحمل المزيد من الوجع، ربما أرادت هذا الشيء، ربمّا. الذي أعلمه الآن أنني مباراة انتهت بطريقة غريبة وبعدها ضجّ العالم، وسيتحدث عنها طويلًا.

كل هذه الثرثرة خطرت ببالي بعد رسالة «مي» الأخيرة. ولا أعلم لمن أبعث بهذه الرسالة، ولا أعلم لماذا أنتظر من قرر ألا يأتي، نسيت شيئًا يا «مي»: أنتِ قطة، وأنا عصفور، طارديني إذن.

آخر التغريد: كنتِ ورطة لذيذة يا «مي»، كانتظار عيد جاء ورحل سريعًا .

«ماجد».

الساعة الواحدة وإحدى عشرة دقيقة مساءً: توقفت عند الفندق، تذكرت أنه قبل سبع سنوات تقريبًا وفي ساعة قريبة من هذه اللحظة دخلت أنثى مكتبي، لم يكن أمرًا غريبًا أن تزورني أنثى بحكم عملي كمعالج نفسي ولكنها استفزت قلبي بطريقة ما، جلست على المقعد الأيمن تفصلنا الطاولة، كانت تتحدث بهدوء أقرب إلى الهمس: سأعطيك CD بداخله ملف بعنوان: عصفور يطارد قطة، أرجو أن تقرأه كاملًا، وبعد أسبوع سيكون موعدي الثاني معك وأخبرك بما أريد، وخرجت بعد أن وضعت الـ CD على الطاولة. لم تمهلني وقتًا حتى أطالع ملفها الفارغ تقريبًا بحكم أنها زيارتها الأولى. كانت آخر مراجعة لحسن الحظ. عطفًا على ما حدث بعد ذلك، فتحت الملف حتى أطالع المعلومات العامة، وجدت بجوار الاسم «مي» ولم أنتبه لبقية الاسم، العمر: 22 سنة، الحالة: عزباء، السكن: الطائف. قرأت هذه الكلمات بينما حشرت الـ CD داخل جهاز الكمبيوتر، وجدت ملفًا واحدًا: عصفور يطارد قطة. قلت في نفسي لم تكن بحاجة أن تخبرني بالعنوان فلن أضيع وأنا أبحث عنه. رنّ هاتفي فنظرت باتجاه الساعة المعلقة بالحائط وكانت الساعة تشير للخامسة تقريبًا، وضعت هاتفي على الصامت ورحت أبحث في

ملف الحالة عن رقم هاتفها، كنت سأخبرها أنني لست أديبًا أو مستشارًا اجتماعيًّا حتى تضع كل هذه الرسائل أمامي، ولم أجد رقم الهاتف. كان عليّ أن انتظرها أسبوعًا كاملًا، وخلاله قرأت الرسائل أربع عشرة مرة تقريبًا، في يوم الأحد الموعود جاءت، كانت الساعة الواحدة ظهرًا وست دقائق وكنت أقدر على تحديد الثانية بدقة قياسًا بحجم انتظاري لحضورها، جلست على ذات المقعد، وكنت قد رتّبت في عقلي أنني سأنتقل حتى أجلس على المقعد المقابل حين تأتي ولم أفعل، سَلّمت بهمس، وسألتني: قرأت الملف؟

- نعم، وكنت سأتصل بك ولكنك لم تدوّني رقم هاتفك.

- هل تفعل ذلك مع كل المراجعين وتتصل بهم؟

- استفزتني فقلت: نعم، خاصة إذا جاؤوا للمكان الخاطئ، أنا لست أديبًا ولا مصلحًا اجتماعيًّا.

- لو أنك كذلك لما أتيت إليك، أعلم أنك معالج نفسي، وأنا أعاني من حالة توحد، ولسوء حظي سافر المعالج الذي كنت أتابع سير حياتي عنده وجئتك بالصدفة.

- أها، ولكنك لا تعانين، فالتوحد يجلب معه أشياء خارقة. آلبرت آنشتاين، وبيل قيتس مثلًا لديهم توحد، وأنت يا مي نابغة في الأدب.

- شكرًا على هذه المجاملة.

يا الله كم هي مستفزة، بعض الأشخاص يستطيعون أن يخرجوا أسوأ ما فيك، وابتلعت ريقي، وقلت:

- وما علاقتي بالملف؟

- كان يجب أن يطلع على ما كتبت أحد ما، وتحديدًا شخص غريب.

- هل تحتاجين رأيي إذن بما كتبتِ؟

- أحم.. لا، أردت أن أطلعك أن المعالج السابق اقترح عليّ في آخر جلسة قبل أن يسافر ولا يعود أن أكتب، وأن أتخيل أنني أنثى طبيعية تمامًا، فعلت وتخيلت أشياء كثيرة، ولم أعد أستطيع أن أبقيها حبيسة عندي.

- أظنك أردتِ أن تقولي أحمق في بداية كلامك، ولكني لم أفهم ما تريدين، واقتراح الكتابة أمر صحي وذكي، ولكن لماذا كانت رسائل تحديدًا؟

- الرسائل أصدق وسيلة لتحكي عنّا، ولا يعني أنني كتبت الحقيقة فقط، لا شيء يستحق أن يعيش مرتين، فما دوّنته عني يشبهني إلى حدّ ما، ولكن ليس الواقع.

كُنت سأقول لها ولكنك لم تردي على ماجد في آخر رسالة، فوجدتني أقول: من هو ماجد؟

- لا يوجد أحد بهذا الاسم، أنا تخيلته أيضًا.

تحديدًا شعرت بالفرح، لأن ماجد غير موجود وغيرتي منه لم تعد قائمة، وفرحت بهذه العبقرية، ثم انتبهت: هناك بريد يخصّ ماجد؟

- مجرد خيال فقط، حتى بريد «مياو» فقط تخيلته، وكنت أرسل مرة واكتبني، ومرة أتقمص دور رجل.

- ولكني أشعر بوجود ماجد حقيقة، للحد الذي جعلني أفكر في أن أبعث له برسالة.

- أتغريك الرسائل؟

- لا، ولكن كنت أريد أن أعرف عنك أكثر، وسأحتاج الآن أن أقرا الرسائل من جديد، ونتحدث في الموعد القادم.

خرجت وهي تشير بيدها بما يشبه باي، المتوحدون يستخدمون الإشارات كثيرًا، ولكن مي تتواصل بشكل لا يمكن معه ملاحظة أن لديها مشكلة في النطق كما درست. أوه، البيئة تفعل أكثر من ذلك. قرأت الرسائل وكنت ماجد، وعند النهاية كرهت أن أكونه حتى لا يحلّ بي غضب وأطرد، فقررت أن أبقى «أيمن» فقط، وقلت في نفسي: هناك أشخاص يستطيعون أن يبرزوا أجمل ما فيك، واتخذت أهمّ قرار في حياتي. طلبت من الممرضة أن تتصل بـ«مي» وتطلب منها بعض المعلومات الروتينية، وأهم شيء هاتف الوالد، وبعد أن جاءتني بالرقم هاتفت والدها ـ كان الاتصال يوم الخميس، بعد أربعة أيام تحديدا من آخر زيارة ـ وبعد أن اعتذرت إن كان وقت الاتصال غير مناسب، طلبت أن أزوره إذا لم يمانع، وأضفت: أنا أيمن، المعالج الذي تتابع مي حالتها عنده. رحّب بي، والتقينا في نفس اليوم، وطلبت مي للزواج وليس يدها فقط.

تمت. الخميس: 20-1-2011م، جدة.

Moh.03@hotmail.com

صدر للمؤلف، كتاب: أرواح عارية،
عن دار طوى: (نصوص–2010)

| الكتاب |

كلّما ضاقت بي الحياة التقطت لي صورة، أفتش فيها عن شيء يشبهني، وفي كل مرة أكتشف شخصًا آخر. حينها أبحث عن مكان لم تطأه قدماي من قبل في حديقة منزلنا الخلفية وأدسّ الصورة تحت شجرة ما، ومنذ دسست أولّ صورة جسّدت حالة الضيق التي تداهمني وكل شجرة أدسّ تحتها صورة لي يتغيّر لون أوراقها !


ISBN 978-614-418-039-6

جداول Jadawel
www.jadawel.net